جنكيز خان

سفاح الشعوب

رواية

الكاتب الصيني

ف. يان

ترجمة

صوفي عبد الله

الكتاب: جنكيز خان .. سفاح الشعوب

الكاتب: ف. يان

ترجمة: صوفي عبد الله

الطبعة: ٢٠٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

يان ، ف.
جنكيز خان .. سفاح الشعوب / ف. يان, ترجمة: صوفي عبد الله
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٢٠٥ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٢ – ٥٩٨ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ١٧٤٢٢ / ٢٠٢٢

جنكيز خان

سفاح الشعوب



مؤلف الرواية

"ف. يان"، مؤلف هذه الرواية، رجل متعدد الصفات متعدد المزايا، يستحق التنويه به لأكثر من سبب واحد.

وأول هذه الأسباب أنه شرقي، من أمة الصين التي تشاركنا نحن المصريين في حب "الأرض الطيبة"، وفي الحضارة الموغلة في القدم، وفي الاعتماد على الأنهار العظيمة ذات الفيض الموسمي في فلاحة الأرض، وفي تقديس الأسرة وحب البنين وإكرام الأبوين والأسلاف.

وثاني هذه الأسباب أن الأستاذ يان عالم من كبار أساتذة التاريخ، فهو إذ يكتب عن "جنكيز خان"، إنما يكتب كتابة المتخصص المدقق، لأنه رجل هذا الميدان.

وثالث هذه الأسباب، أنه أخذ في دراسته العلمية واطلاعه الثقافي بأطراف الشرق والغرب، فقد تلقى علومه في جامعة موسكو.

ورابع هذه الأسباب، أنه يمثل في الأدب المعاصر تلك "الكتلة الشرقية"، فهو حائز لجائزة ستالين في الأدب، التي تقابل عند الغربيين جائزة نوبل، وقد استحق الجائزة بهذه الرواية التي نقدمها للقراء.

وأسلوب ف. يان، في هذه الرواية من أصلح النماذج للأدب على مذهب الماركسيين. فالقصة عند الماركسيين، أصحاب التفسير المادي لأطوار التاريخ، لا تكون قائمة على حياة فرد من حيث هو فرد، مهما نبه

شأنه وذاع ذكره، بل المعول في القصة أن تكون صورة لحياة شعب أو مجتمع ما في فترة ما من الزمن. فليس الأفراد إلا عناصر تعين على رسم صورة المجتمع وعرض مشاكله.

ولكن أدبهم لا تنقصه الطلاوة. فالسرد شائق جدا، وطريقة علاج الموضوع تزينها اللباقة وتظهر فيها بوضوح آثار العناية بالصناعة الأدبية والجمال الفني.

وهذه الرواية بالذات خليقة أن تلفت أذهاننا إلى ما يحاك للشرق العربي في هذا القرن من فخاخ، وما تشن عليه من حروب على يد التتار الجدد الذين التهموا أول ما التهموا تلك القطعة العزيزة من الوطن العربي: فلسطين. ولن تتورع أذرع الأخطبوط التتري الجديد عن الامتداد إلى سائر الأقطار العربية ما لم نتذرع باليقظة والهمة ونتحاشى مهاوي الفرقة والأنانية.

صوفي عبد الله

مقدمة

سلامًا أيها القارئ!

لا سطوة للبازي في آفاق السماء بغير جناح، ولا حيلة للضارب في الأرض بغير جواد وسلاح. وما من أمر يحدث في الدنيا إلا وله سبب، فمن سار على هدى وصل إلى الغاية، ومن تنكب الطريق تردى في هاوية الغواية.

وليست للتاريخ غاية إلا بعث حياة السالفين، لا مجرد سرد وقائعهم في الغابرين. وتلك هي غايتي من هذه الصفحات، التي أردت بها أن أعيد إلى الحياة عصر القائد الدموي، سفاح الشعوب الأسيوية، عاهل المغول: جنكيز خان، ذلك الوحش الضاري الذي قاد وحوشا ضارية، لم يعهد لها مثيل في القسوة والبأس.

فقد كانت غزواته إعصارًا مدمرًا اجتاح بلا هوادة أو رحمة، ووديان "ما وراء النهر" الوادعة، وسهول خوارزم. كانت إعصارا من خيل مطمرة لا تعرف التعب، وجند مدرب لا يعرف الكلال، وسيوف مصقولة لا تعرف الرحمة، وعلى رأسهم عاهلهم ذو اللحية الحمراء، فكأنهم أرجال الجراد تأتي على الأخضر واليابس، فكل ما تركوه فهو خلو من الحياة، لا يصلح للسكنى أو الاستنبات، وقد انعقدت فوقه ألوية الخراب، وسحب الدخان، وعوت بين جنباته صيحات الذئاب وبنات آوى!

تلك حقبة من التاريخ البشري يعز نظيرها، وقد طلب إليَّ الكثيرون أن أدونها وأحاول بعثها، بألوانها القاتمة والزاهية معًا، ولم أجد خيرًا في السكوت، لأن الساكت عن الحق شيطان أخرس.

وقد تحريت أن تكون الرواية صادقة في وقائعها وشخوصها، فهي رواية إذا شئتم، أو هي كتاب حقيقة وصورة حياة.

وقد تحملت مشقة الكتابة، فتحمل أيها القارئ مشقة الاطلاع!

أشخاص الرواية

جنكيز خان: إمبراطور المغول.

علاء الدين مُحَمَّد: شاه خوارزم.

طرخان خاتون: أم الشاه، وهي امرأة داهية.

جلال الدين: ابن الشاه الأكبر، وهو شهم مكروه من جدته.

محمود غلوش: تاجر جرجاني، جاسوس لجنكيز خان.

قول جميل: فتاة تركمانية حسناء غصبها جند الشاه وأهدوها إليه.

قره قونشار: قاطع طريق تركماني شجاع يحب قول جميل.

يوشي خان: ابن جنكيز خان الأكبر.

تيمور مالك: قائد حرس الشاه.

عبد الرحيم: درويش من ضحايا ظلم الشاه، أنقذ محمود غلوش من الموت، واتصل به.

قول كان خاتون: آخر زوجات جنكيز خان.

له ليوتشاتساي: مستشار صيني لجنكيز خان.

جنكيز خان في سطور

- فاتح مغولي ولد سنة ١١٥٥ ميلادية على الضفة اليمنى من نهر أنون في إقليم (دولون يلدق) وهو اليوم من بلاد الروس.
- والده بسوكاي أمير قبيلة من قبائل التتر، وقد سماه "تموجين" من اسم أمير تغلب عليه حين ولادته.
- أنشأ إمبراطورية واسعة شملت كثيرا من بلاد الصين والتركستان والروس وإيران.
- لقب نفسه إمبراطورا عام ١٢٠٣ واتخذ اسم "جنكيز خان" وهو محرف عن الكلمة الصينية "شنج سز" ومعناها ابن السماء.
- نظم إمبراطوريته وجعل على معسكره شارة رسم عليها ذيول تسعة خيول بيضاء رمزًا لفروسيته وقوته وسلطانه، وقسمها بين أبنائه.
- كان يقول: "إن من يقدر على حفظ نظام بيته يقدر على إقامة النظام في إمبراطوريته. ومن يستطيع قيادة عشرة رجال على وجه حسن يمكن أن يعهد إليه بقيادة عشرة آلاف رجل".
- وسع إمبراطوريته على حساب ظلم الشعوب وسفك الدماء وقتل الأبرياء والقسوة الوحشية.
- عاد إلى وطنه من فتوحاته سنة ١٢٢٥ ثم مرض في إقليم كان سنو الصيني، ومات سنة ١٢٢٧ بالقرب من مدينة سان جو.

في دراعة الدراويش

عبد الرحيم البغدادي

كان الثلج يساقط أثناء العاصفة القاسية التي جعلت تجتاح في أوائل الربيع تلال كراكوم الرملية، فتنثني تحت وطأتها الشديدة تلك الشجيرات المتناثرة القلائل التي تبثق من وجه الرمال هنا وهناك. وكان ثمة بضعة عشر جملا محملة بالبضائع، وقد أناخت إلى جوار حائط مهجور، وغمرتها الثلوج حتى كادت تطمرها، فهي تطلق الرغاء بين الحين والحين، فيتجاوب مع أعوال الرياح الهوجاء.

ولكن القافلة الصغيرة لم يكن لها حاد، ولم يكن على سنام نياقها أصحاب الرحال. فلماذا تركوها؟ ولماذا لم ينزلوا الرحال عن ظهورها لتستريح؟

ورنت من بعيد أصوات ناقوس صغير، أصغت إليه الإبل المنهوكة وأصاخت، ثم أقبل من بعيد حمار قاتم، في عنقه جرس، وفي ذيله رجل كث اللحية، عليه دراعة الدراويش وقلنسوتهم الطويلة، وقد دلف حولها قماشا أبيض مما يلبسه من حج إلى بيت الله الحرام في مكة.

– تقدم يا بكيري العزيز! وتشجع! فقد قربت الشقة، وحان أن تجد شبعك من التين والشعير. انظر ماذا وجدوا؟ هذه نوق ورحال، وحيث النوق والرحال يكون الرجال، ولن نعدم من قوم حلول حول نار القرى أن

يطعمونا مما يحملون من زاد.. أيها المؤمنون! أيها الناس! هوى! يا أهل الله!

ولكن لا جواب! ولا صوت سوى رنين الناقوس في عنق حماره الذي يلاطفه ويسميه بكيرًا أو بعيرًا على سبيل التدليل.

واقترب الدرويش بحماره من الحائط الذي تعلوه قبة من الطين وأطل منه وهو يقول، وقد رأى صفًّا من الأجداث:

– السلام عليكم يا أهل هذا الوادي الأمين.. السلام عليكم في رقدتكم الأبدية، من الدرويش الفقير عبد الرحيم البغدادي.

ولكن عينه أبصرت بجوار الحائط من الداخل أربعة شخوص، أمامهم نار خمدت بعد اتقاد، فهتف بهم:

– السلام عليكم أيها المؤمنون ورحمة الله!

فلم يتلق على تحيته جوابا، وأنبأه الصمت، وشحوب الوجوه، أن القوم فارقتهم نسمة الحياة! وتولاه الرعب، فارتد إلى الخارج، حيث العاصفة الهوجاء، والثلج المتساقط، وهو يناجي نفسه قائلًا:

– إنك لمجدود يا حاج عبد الرحيم، فهذه أربع جثث تنتظر من يكفنها، ماتت من شدة البرد، في حين تنعم أنت بالحياة! أنت جائع حقا، ولكن هذا خير من الموت على كل حال. ولو أنني مددت الآن يدي لكانت لي كل هذه الإبل بما تحمله من مال، ولكن أنى لدرويش يبحث عن الحق ورضوان الله أن تمتد يده إلى مال حرام أو حلال؟ بيد أن الرأفة بالحيوان الأعجم واجبة، فلنحلل عنها عقالها، ولنخفف عنها وقرها.

وأنزل الأحمال الثقال من ظهور الإبل، ووجد بين الأحمال شعيرًا، فوضع شيئًا منه أمام كل دابة، ثم استلقى على كومة من القش، إلى جوار حماره، ليستمد من جسمه الدفء. حتى إذا أصبح الصباح، كانت العاصفة قد هدأت، والشمس تنشر دفئها على السهل المترامي، فوضع على ظهر حماره ما كان قد تبقى من الشعير، ألقى نظرة أخيرة على الكوخ، فهاله ألا يجد من الأربعة الذين كانوا هناك أمواتا، غير رجل واحد! هذا الرجل يحملق بعين لا تطرف كأنه تمثال، فقال عبد الرحيم لنفسه:

– بسم الله الرحمن الرحيم! أين ذهب الأموات الثلاثة؟ هل عادوا إلى قبورهم؟ هذا من فعل الجن! هيا بنا يا حماري ننجو بجلدنا إلى بلاد خوارزم، حيث المؤمنون الذين لا يغشاهم الشيطان.

فسمع صوتا أجش يهيب به:

– أنقذني بربك أيها المؤمن.

ورأى لحية الرجل المحلق تهتز قليلا، فهتف به:

– من أنت؟

– أنا محمود؟

– هل أنت من خوارزم؟

– إنني أحمل الصقر الذهبي.

– يا الله! هذا رجل على شفا الموت، ويفكر في صقر! اشرب! فازدرد قطرات من الماء من سقاء الدرويش، ثم إذ استرد بعض قوته أنشأ يحدثه:

– لقد أثخنوني بالجراح.. هاجمنا رجال قاطع الطريق "قره قونشار" والناجون من رفاقي، وهم ثلاثة، اصطنعوا الموت، حتى إذا دجا الليل تسللوا.. أما أنا، فما بي قدرة على الحركة. أعني بربك، وأنقذني، فالمؤمن الذي يترك مؤمنا يهلك وفي يده نجاته كالقاتل سواء بسواء.

واصطكت أسنانه من الحمى، وقد امتدت يداه كالمتعلق بأذيال جسمها له الوهم. فأقبل عليه الدرويش، ونضا عنه ثيابه، ثم جعل يعالج جرحا في صدره حتى أوقف نزفه، ثم وجد على الأرض شعلة بيضاء فجعل يطويها لكي يربط بها الجرح، فسقطت منها أسطوانة من ذهب، صغيرة الحجم، عليها صورة صقر مبسوط الجناحين. وتحتها كتابة بحروف غريبة، مثل أرجل النمل الزاحفة.

وجعل الدرويش يتأملها، ثم رجع البصر في الجريح وتمتم:

– هذه "إجازة" من خاقان التتار، جنكيز خان، يميز بها أهل طاعته وخدامه في بلاد الأعداء. وما أحسب السحب السوداء التي تتجمع على أفق الدنيا إلا ذات صلة بهذا الرجل الجريح. لأحفظها له حتى ينجو من الحمى ويبرأ من جرحه.

وأخفى الصقر الذهبي بين طوايا دراعته البالية، وضمد الجرح بالشملة، ثم رفع الجريح على بعير قوي، وربطه فوقه بحبل متين حتى لا يؤذيه الاهتزاز، ثم ساقه وحماره عبر السهل، ميمنا شطر جرجيان، حثيث الخطو، كيما يبتعد عن خطر السطاة من رجال قره قونشار أي "السيف الأسود".

ولي عهد خوارزم

وكان جلال الدين، ولي عهد خوارزم، قد خرج للصيد في بركة كراكوم وحوله كوكبة من الجراكسة، ولكنه أوغل في مطاردة الفرائس، حتى ضل الطريق، وأمسى وحيدا، وبدأت العاصفة القاسية التي أسلفنا وصفها، فجعل يشق طريقه بصعوبة، وفي يده عنان فرسه، حتى أعيته الحيلة في الظلام، فقضى الليل على الأرض إلى جوار الفرس، والثلج يكاد يطمره، فلما كان الصباح، كانت الريح قد سكنت، وبدأ الثلج يذوب، فإذا خيام مضروبة لقوم من التركمان، وخرجت الكلاب تنبحه، وخرج من خيمة في أواسط المحلة شيخ العشيرة المسن، وعليه قباء من جلد الشاء، فتقدم من الأمير في وقار، ودعاه إلى القرى والضيافة، بأن لمس عنان جواده، فلما تبين فخامة ثياب الأمير، وفراهة جواده الفاحم السواد، أحنى قامته وهتف به:

– أرجو أن يأنف سيدي من النزول برحاب بيتي المتواضع.

– السلام عليكم! إنما أريد شيئا من الشعير لجوادي، وسأدفع فيه ثمنا مضاعفا.

– القوت في البيداء أغلى من الذهب. ولكن كل ما لدينا طوع أمرك، وسنطعم جوادك من القمح المصفى لا من الشعير.

ونادى الشيخ غلاما أسلمه عنان الجواد وأوصاه به خيرا، ثم قاد الأمير إلى باب خيمته.

ووجد الأمير الجو فيها دافئا، ففي وسطها نار موقدة بحطب. وإلى

جوار النار، فوق فراء مبسوط، رقد رجل متدثر، يئن أنينا خافتا، وعلى وجهه الشاحب صفرة النزع الأخير، وإن كانت أنفاسه العميقة تنبئ عن ذماء من الحياة لا يزال يقاوم ريح الموت التي تهب على ذبالته.

وتحت أقدام المريض المحتضر جلس رجل في دراعة الدراويش عليه عمامة الحجاج وسمتهم، فأقرأه الأمير جلال الدين السلام، ثم جلس على الفراء إلى جوار المريض، وتقدمت جارية محجبة فخلعت حذاءه الأخضر المبلل بأدوب الثلج، وخلع الأمير بيديه منطقته العريضة وحمالة السيف المحدب، فوضعهما إلى جواره، ثم التفت إلى الدرويش الذي تحمل مرقعته المتباينة الألوان آثار أسفاره فقال له:

– من الرجل؟ إني أرى عليك سيماء سفر طويل في أرجاء الأرض.

– صدقت يا مولاي! إنني رحالة في محيط الضلالة، ينشد شاطئ الحق المجهول.

– ومن أي البلاد؟ وما وجهتك الساعة؟

– اسمي الحاج عبد الرحيم، وكنيتي البغدادي لأنني قضيت شبابي أطلب العلم في تلك المدينة. حيث درست على العلماء الأعلام، مصابيح الهدى في الظلام، فأخذت عنهم آداب العرب والأتراك والفرس، ولكنني زهدت في الدنيا ورحت أطلب التوبة والرضوان في آفاق الأرض. وأنا الآن في طريقي إلى جرجان، حاضرة خوارزم، زينة بلاد الدنيا، وأغنى مدائنها. حيث قيل لي إن فيها من العلماء من لا يدانيهم أحد في حذق أسرار العلوم والفنون. وأنا طالب الأسرار، ومحب

المعرفة، وعاشق الحكمة. أنشدها في كل مكان، لا يقر لي في طلبها قرار.

وفي هذه اللحظة دخل شيخ العشيرة يحمل شواء للقرى، وجلس أمام الأمير بتأدب، وجعل يعزم عليه ويجامله، ثم سأله الأمير:

– لمن الديار أيها الشيخ؟ وأين موقعها؟ فقد ضللت طريقي.

– هذه الديار على مبعدة يسيرة من طريق القوافل الكبير، الصاعد إلى مدينة "ناسة"، وما نحن إلا عشيرة من التركمان هينة بين عشائرهم المنتشرة في السهل الكبير.

وارتفعت في الجو فجأة أصوات نباح الكلاب خارج الخلاء، ثم سمع وقع حوافر جواد مقبل، لم يلبث أن وقف براكبه عند الباب، وارتفع صوت قوي ينادي شيخ العشيرة:

– يا قوقد! من عندك في خيمتك؟ أجب يا قرقد!

فنهض الشيخ وخرج إلى الباب، وسمع النقاش واضحا في داخل الخيمة على هذا النحو، بدأه الفارس الغريب بصوته الأجش:

– لماذا حضر؟ لقد دنت ساعته!

– إن ثلاثتهم ضيوفي، ولن تجسر على مسهم بسوء.

– سنرى الآن ماذا سطر على جباههم من قضاء الله.

– إنهم ضيوفي يا رجل! ومن هؤلاء الأسرى الخمسة؟

– إنهم من صناع النحاس المهرة، أخذتهم من قافلة قلمت أظفارها وسآخذهم إلى مرو، لأبيعهم بثمن كبير.

ودخل شيخ العشيرة مع ضيفه الجديد، فإذا هو شال طويل، عريض الصدر، دقيق الخصر، وفي جانبه سيف طويل مستقيم النصل، وعليه بزة التركمان، وعلى وجهه البارز عظام الوجنتين سيماهم الواضحة.

ودعا الشيخ ضيفه إلى الجلوس قرب النار، ولكنه لم يجب الدعوة بل ظل واقفا في فرجة الباب، وقد اتسمت حدقتاه كعيني البومة، فسأله الأمير جلال الدين من دون أن يرفع إليه وجهه:

– من الرجل؟

– رجل من أهل السهل المعشب.

– وهل تشتغل بالمرعى، أو لك عمل سوى ذلك؟

– إني أقلم أظفار القوافل، وأنتف لحى تجارها!

وكانت الوقاحة ظاهرة في هذا الجواب، فكان القادم يريد أن يتصيد موضوعا للشجار بأي شكل. ولكن جلال الدين لم يظهر الاهتمام، وكل ما بدر منه أنه رفع عينيه إلى القادم لحظة ثم غضها عنه، وقد اختلج جانب فمه اختلاجة خفيفة. وساد الصمت لحظة، حتى قطعه القادم مرة أخرى بسؤال جديد:

– هل أنت قاصد جرجان كما قيل لي؟ في استطاعتي أن أصحبك لأرشدك إلى الطريق.

– ولكني لست قاصدا جرجان.

– ومن هذا الذي يتوجع ويئن؟

فقال الدرويش الحاج عبد الرحيم:

– هذا رجل عدا عليه قطاع الطريق، وأحسب هذا من فعل قره قونشار، فهذا الفر يقول إنه لا يرحم أحدًا.

– وهل تظن أن أحدا لم يسئ إلى قره قونشار؟

– ومن أنا حتى يكون لي رأي؟ ما أنا إلا حشرة ضئيلة تسير على وجه الصحراء.

– قره قونشار يعيش وراء مستنقعات ماؤها أجاج، ولن تصل إليه يد أحد، أما يده فتصل إلى كل إنسان!

فعلق جلال الدين على هذا القول:

– إن الذي يعيش بالسطو سيلقى يومًا جزاءه، وسيرفع رأسه يومًا على سن رمح فوق أسرار جرجان!

– قره قونشار ظل في الليل، وثعبان في النهار يتسلل بين الحشائش، فلا يراه أحد إلا وهو يلدغ عقبه. إنه وحيد بلا أب أو أم أخوه، ولكن كانت له فيما مضى أسرة وأخوات. حتى احتاج الشاه محمود إلى مائة جواد، فجأة على رأس جنده الكبشاق، وانتزع منا ثلاثمائة جواد من أحسن الخيل. ثم انتزع من أعناق نسائنا حليهن. ولم يكتف بزوجاته الثلاثمائة، فانتزع منا جوهرة عشائرنا "قول جميل" التي تعلقت بها قلوب

فرسان التركمان، لتكون سجينة في قصره، وليجعل منها زوجته الحادية بعد الثلاثمائة. فهل هذا عدل؟

فأجابه جلال الدين:

– كلا! إنه ظلم بين. ولكن خبرني أيها الفارس، إنك تقول إنه كانت لك يوما أسرة: أب وإخوة وأخوات.. فأين ذهبت؟

– أما أبي الشيخ فقتله الكبشاق القساة في الميدان الكبير بجرجان. أما إخواني فهربوا وتشردوا. وأما أخواتي الأبكار فاغتصبهن جنود الشاه. فهل هذا عدل؟

– كلا! هذا ليس عدلا.

– فماذا لي إذن إلا التمرد على السلطان، والسطو والعدوان؟

– إنك فتى باسل.. فلماذا لا تستخدم سيفك في خدمة الدولة والدين؟ إذا جئتني في جرجان، يسرت لك أن تظفر بمكان بارز أنت أهل له بقوة جنانك.

– وجواسيس الشاه مُحَمَّد، ماذا أفعل بهم في جرجان؟ إنهم يتصيدونني لأول وهلة، وسأضطر إلى قتالهم.

– لا حاجة بك إلى الإيغال في جرجان. فعند الباب الغربي ستجد بستانًا كبيرًا على بابه أعمدة، فأبرز هذه الورقة للبواب، واطلب إليه أن يدخلك على رب البستان والقصر.

وأخرج جلال الدين من قفطانه رقعة ختمها بخاتمه وأعطاها قوه

قونشار فتقبلها وقبلها ووضعها على رأسه وهو يقول:

– إني أثق بك أيها الأمير، وسآتي إليك هناك. السلام عليكم.

وتسلل خارجًا فاختفى عن الأنظار، وقد اقتاد أسراه الخمسة، وراء جواده الأدهم. ووقف شيخ العشيرة بباب الخيمة يتبعه النظر، ثم عاد ليقول لجلال الدين:

– إن مائة فارس يتجهون إلى هذه الناحية يا سيدي.

– إنهم جند الشاه، يبحثون عني وقد افتقدوني.

قضاء الحكيم

ولما غادر الحاج عبد الرحيم خيمة الشيخ التركماني، ظل يضرب في الأرض يومين، متجهًا إلى الشمال، نحو واحة على شواطئ نهر جيحون، تقع فيها مدائن خوارزم العامرة وكان الحمار الأسمر يتقدم الركب، ويقفوه البعير الذي فوقه التاجر الجريح الذي لم يثب إلى وعيه من سورة الحمى حتى الآن. والحاج عبد الرحيم يسير في المؤخرة، يتغنى للدابتين بحداء من أشعار العرب أو الفرس، وعينه على الأفق البعيد، تتطلع إلى رؤية القباب البيضاء ومآذن مساجد خوارزم.

وفي اليوم الثالث، انبسطت أمامه فسحة من الأرض خضراء، فيها آجام وبساتين وحقول خضراء، تبثق منها كالرماح المشرعة مآذن المساجد، وأبراج كالمرآة الفضية، وقد تناثر فيها فلاحون أشباه عراة، عليهم أسمال بالية، وفي أقدامهم الأغلال.

وعلى ربوة تشرف على تلك البقعة التي جملتها الطبيعة وجاملتها، وقف الدرويش، الحاج عبد الرحيم، ورفع ذراعيه إلى أعلى، وهو يصيح: هاؤم أرض جعلها الله جنة في الدنيا، ولكن الإنسان الظلوم الجهول أحالها جحيمًا ترتعد فيه الفرائص، ويهرب فيه الأمن من القلوب، ومن هذه الأرض التي باركها الله ولعنها الإنسان هربت منذ خمسة عشر عامًا ناجيًا بنفسي، كالفريسة التي انطلقت في أعقابها كلاب الطراد. أما اليوم، فمن الذي سيعرف في الدرويش الحاج طريد الأمس البعيد، الأسود اللمة، الطرير الشباب؟! هلم يا حماري، هلم إلى أرياض جرجان، عاصمة خوارزم، وزينة مدائن الإسلام، وحاضرة الشاه مُحَمَّد.

وأخذ الدرويش يحث الخطى وراء البعير والحمار، وكلما أوغل في السير بين الضياع والقرى، كثرت على الطريق من حوله عربات الثيران الثقيلة، تحمل المحصولات، وكثرت قطعان الأغنام والماشية، وخوار البقر والجاموس، وغناء الفلاحين الذين يسوقون الأوز إلى أسواق المدينة.

وما بلغ الدرويش أول مدينة من مدائن خوارزم، حتى ألفى نفسه محوطًا برجال عليهم قلابق بيض طوال، هم عسس البلدة وشرطتها السريون:

– من أنت أيها الرجل؟ وإذا كنت درويشا كما تنبئ عنك مرقعتك أو دراعتك هذه، فمن أين للدراويش الفقراء مال يتمثل في الحمير والجمال؟ تعال معنا إلى حكيم البلدة (وهو قاضيها) لينظر في أمرك، فإن من ينذر لله الفقر ويقتني الأموال يستحق عقوبة الموت.

واقتيد الحاج عبد الرحيم ودابته إلى فناء يحيط به سور من الطوب النيئ، وألفى في صدر الصحن، فوق منصة مرتفعة مفروشة بالسجاد، رجلا يجلس القرفصاء، وعليه شملة في بياض الثلج، وله لحية مستديرة. وفي عينيه نظرة نافذة قاسية، فما تقع عليه عين إلا تولت صاحبها رعدة خوف. وبين يدي هذا القاضي أو الحكيم كاتب يدون الأحكام في كتاب خاص.

وسأل الحكيم الحاج عبد الرحيم:

– من أنت؟

– أنا عبد الرحيم البغدادي، تلميذ الأشياخ الأعلام في بغداد، وصناعتي السفر بين البلاد في طلب الهدى والرشاد.

– ولكن من هذا العليل الذي تحمله على بعيرك هذا! وأين شملته؟ وهل هو مسلم أم كافر؟ لقد قيل لي إنك سطوت عليه، فجرحته وسرقته، وبعت ما كان معه من النفائس، فهل هذا حق؟ أصدقني الخبر.

فروى له الدرويش القصة بحذافيرها، فقام القاضي من مجلسه ودنا من الجريح، وتبعه في هذا جمع غفير. وما رأى بعض الحضور وجهه حتى صاحوا:

– نحن نعرف هذا الرجل.. إنه من سراة فرغانه وكبار تجارها، واسمه محمود غلوش وله قوافل كبرى تنقل المتاجر إلى تبريز، وبلاد البلغار، وعاصمة الخلافة بغداد.

فلما سمع الحكيم ذلك، جعل يمشط لحيته بأصابعه النحيلة ثم قال:

– حيث أن المؤمنين الحاضرين هنا الساعة قد شهدوا بأن هذا العليل الجريح ثري من تجار جرجان، واسمه محمود غلوش الجرجاني، لهذا أصدرنا أمرنا بنقله من فوق البعير إلى منزلنا هذا وأن يذهب عبد من عندنا لاستدعاء الطبيب، وأن تبذل له كل أسباب العناية والرعاية. ولما كان الدرويش قد أسدى إلى الجريح معروفًا بإنقاذه، فالتاجر يجزيه على ذلك بجمله. ولما كان الدرويش لا يحق له أن يقتني أموالًا ولا إبلًا، فإني أحتفظ بالجمل حتى يشفى التاجر. ولما كان الحكم في هذه القضية عملًا يستوجب الأجر، فقد أمرنا بالاستيلاء على حمار الدرويش بمثابة أجر لنا على نظر هذه القضية والحكم فيها. والتفت الحكيم إلى كاتبه وسأله هل فرغ من كتابة الحكم. فأجابه الرجل في مذلة بالإيجاب، وعندئذ التفت الحكيم إلى الدرويش وقال له:

– أيها الدرويش العالم.. تقبل من يدي هذا الدرهم هدية خالصة وصدقة!

فتناول الحاج عبد الرحيم الدرهم النحاسي، وحك به حاجبه ثم قبله وضم عليه يده، ثم قال للقاضي: – ما أعمق حكمتك أيها الحكيم! يا مناط العدل وحامي الحق! لقد أنعمت عليَّ بتخليصي من عبء العناية برجل جريح، وجمل وحمار لابد لهما من طعام. والدليل على أن عدلك ناصع كبياض لحيتك، أن هذا الدرهم سيغدو دينارًا من الذهب الرنان!

وفتح الحاج عبد الرحيم يده، فإذا فيها دينار من الذهب الوهاج ثم أطبق يده مرة أخرى. والناس في عجب شديد من أمره، وإذا القاضي الشيخ يمد يده بحركة سريعة لا يتوقعها أحد ممن في مثل سنه، ويأخذ

بمعصم الحاج عبد الرحيم، ويطالبه بالدينار، ثمنًا لما أسداه إليه من خير، بهذا الحكم العادل، ويفتح الدرويش يده، فإذا الذي فيها هو الدرهم النحاسي. فهز الحكيم كتفيه يأسًا! وعاد إلى مجلسه، وتوجه الدرويش إلى الحمار فقبله قبلة الوداع، ثم حمل عن ظهره خرجه فوضعه على كتفه، ثم أخذ طريقه إلى جرجان، وهو يصيح صيحة الدراويش المألوفة:

– يا هو! يا حق! لا إله إلا هو!

صاحب التدوين

وقف الدرويش على سور يحيط بدار متواضعة في حارة مقفرة من دروب جرجان، وأنشأ يحدث نفسه:

– ما تغير من هذا المكان شيء، فهو كما كان منذ أعوام غير أن فتاة كاعبًا متوردة الخدين كانت تدخل من هذا الباب وتخرج، فأين هي الآن؟ وماذا حدث لها؟

وفتح الباب، وبرزت منه فتاة يافعة، في يدها معول، وسحنتها وزينتها تدل على أنها من سلالة تركية. وجعلت الفتاة تغني لنفسها، وهي تعمل المعول في أرض الحديقة، حتى تدفق الماء إليها بعد أن أزالت السد الصغير في أسفل السور، ثم استقامت في وقفتها، وجعلت تظلل عينيها بيديها وتنظر إلى أول الدروب، حتى برز منه فارس شاب عليه جبة خضراء داكنة، وعلى شفتيه أغنية، يرد فيها ذكر الليل الذي لم يقطعه النعاس، والفجر الذي يطل من وراء غيابة الليل، وما من أحد يدري ما يحمله الفجر الجديد إلى الناس!

فما لمحته الفتاة يقترب منها، حتى سقط المعول من يدها، واختفت مجفلة في داخل الدار. فإذا اختفى الفارس عن الأنظار، برزت تطل من فرجة الباب في وجل، ثم عادت ثانية إلى الاختفاء داخل الدار.

واقترب الحاج عبد الرحيم. فقرع الباب بعصاه، وهو يصيح صياح الدراويش المعهود: يا هو! يا حق!

فأطل من الباب رجل شيخ، أحنت ظهره السنون، محمر العينين، وأخرج من ثنايا ثوبه كيسا باليا من الجلد، فأعطاه منه درهما، فأخذ الدرويش الدرهم وقبله ثم قال:

– السلام عليكم! لمن الدار؟ ولمن أدعو بالخير عند الله؟

– أنا قاطن هذا البيت وإن كنت لا أملكه.

– ومن أنت يا صانع المعجزات؟

– لست صانع معجزات. وإنما أنا صاحب تدوين الشاه. أنا ميرزا يوسف، كاتب أخبار الشاه سنة بعد سنة.

– ولكنك مع هذا صانع معجزات! فقد أعطيتني درهمًا أسود، ولكن لأنك أعطيتنيه عن قلب خالص، فقد بارك الله فيه وأحاله دينارًا من الذهب الخالص!

وانحنى ميرزا يوسف على كف الدرويش المفتوحة، ليرى في راحته دينارًا من الذهب فقال له:

– هل أنت صاحب كرامات أيها الدرويش، أم هي لعبة من ألاعيب

الشعوذة تخدع بها رجلًا مسكينًا كادت تذهب ببصره السن؟

– أدخل إذن إلى البيت، حتى نرى عاقبة هذا الأمر.

واقتاده الشيخ إلى سطح الدار، حيث مظلة من أوراق الشجر، وعلى الأرض أبسطة من صوف الغنم. وجلسا، ثم صفق الشيخ بيده وصاح: "يا بنت زنجية!" فأقبل غلام عليه قباء فضفاض وشملة زرقاء، فوضع راحتيه على صدره وانحنى امتثالًا، في انتظار أوامر الشيخ.

– أعطِ هذا الدينار إلى صقلب، ليذهب به إلى السوق، فيعرضه على الصيارفة الهنود، فإذا وجدوه صالحًا استبدله منهم، ثم أحضر لنا كبابًا، وفطيرًا، وفاكهة. ثم هات الورق والدوراة والأقلام لكتابة أخبار هذا الدرويش الرحالة.

وامتثل الشاب للأمر، فلما عاد بالورق والأقلام، جلس القرفصاء، ثم سأل الشيخ ضيفه عن اسمه وخبره، فأنشأ يقول:

– لقد طلبت العلم على يد العلماء الأعلام في بغداد عاصمة الخلافة. فلما صرحت بعزمي على اتخاذ زي الدراويش، والتنسك والارتحال، قال لي واحد من أعز زملائي في الدرس: "إذا ما وصلت بك الرحلة إلى جرجان حاضرة شاهات خوارزم، فاسلك الدرب الثالث الذي يقطع الطريق المؤدي من السوق إلى باب المدينة الغربي، وخذ إلى اليسار، فاسأل عن بيت يملكه قره مقسوم الحداد، ويسكنه أبي الشيخ العالم، فأقرئ والدي السلام، ونبئهما بخبري في بغداد. ووعدت صاحبي أن أفعل، ولكن رحلتي طالت، فطوفت ببلاد الهند، وبلغت سور الصين

العظيم، ووصلت إلى شاطئ البحر المحيط، قبل أن أصل إلى هذه الدار وعرفت فيها الدار التي تركها صاحبي منذ خمسة عشر عامًا إلى بغداد في طلب العلم.

– وما اسم هذا الشاب؟

– اسمه أبو جعفر الخوارزمي!

فارتعدت فرائص ميرزا يوسف غضبًا، وصاح بالدرويش:

– وتجسر على ذكر هذا الاسم هنا؟ إنه زنديق أشر! إنه من المفكرين الأحرار أتباع ابن سينا، الذين يناقشون العلماء، وينكرون البعث والخلق. حتى استوجب القتل، ولكنه فر، فأخذ أهله بجريرته، كلما مات واحد منهم في السجن أخذ من يليه، فوضع في جب العذاب الأبدي، حتى يموت. وهكذا مات أبوه، وأخوه الأكبر، واليوم يرسف في الأغلال أخوه الأصغر، ولن يفك من قيوده إلا بحضور المجرم الأصلي! لك الله يا "طوقان"! كم ستعاني وأنت في غرارة الصبا حتى تذوي! لقد كان هذا الغلام تلميذي، وكان يكتب لي، حتى أخذ إلى السجن، فحلت محله بنت زنجية، وهي ابنة جارية كانت لي. أحبها هذا الفاسق أبو جعفر وتركها عند فراره وفي أحشائها هذه الجارية. إنها لتحسن الكتابة كما يحسنها إمام من العلماء. وهي التي تراها الآن في ثياب الغلمان!

ونظر إليها الدرويش، وقد اربدت سحنته، فتبين فيها الفتاة التي رآها تعمل في الحديقة وفي يدها المعول. وفي هذه اللحظة دخل عبد طويل،

أشقر، كث اللحية، كبير السن، في قدميه الأغلال، فوضع الطعام بين يدي سيده وضيفه. وهو عبد اقتنصه تجار الرقيق من سهول روسيا الجنوبية، ودعاه سيده صقلب، نسبة إلى الجنس الصقلبي الذي ينتمي إليه الروس كما هو معروف.

وأحضر العبد الطست والإبريق، فغسل الرجلان أيديهما وطعما شبعهما، ثم استأذن الدرويش في الانصراف. فلما بلغ الطريق، وقف في ظل شجرة عتيقة، وملأ عينيه الدامعتين من معالم المكان، وقال لنفسه:

– ما أراني سأعود إلى هذه الدار بعد اليوم، حيث علمني هذا الشيخ يومًا مبادئ القراءة. ولست نادمًا على الدينار، ديناري الوحيد، الذي ظفرت عن طريقه بالجلوس إليه ساعة. أما الآن يا أبا جعفر، أو يا حاج عبد الرحيم، فإلى الطريق مرة أخرى. تطلب بارقة النور في بحر الظلمات.

الشاه محمد

في قصر الشاه

في ظلمة الليل الساكن، قبل انبلاج الفجر كان الشاه مُحَمَّد، شاه خوارزم، يتقلب في فراشه في قصره بجرجان، وقد تراءى له حلم مزعج، كأنه الكابوس، ففتح عينيه ليجد إلى جواره شبح فتاة في يدها شيء يلمع في الظلام. إنها قول جميل وفي يدها خنجر! وسرعان ما جاء الحراس، فاقتادوها، بعد أن أمرهم البادي شاه أن يحضروها إليه في قاعة الطنافس حين يأتي المساء. ثم سأل حاجبه العجوز:

– هل حضر وكيل القصر الوزير؟

– هما في الانتظار يا صاحب الجلالة، وكذلك صاحب البريد والأئمة الثلاثة.

– وجلال الدين خان؟

– إنه لم يعد بعد يا مولاي.

– دعهم ينتظرون. وابعث إليّ بالحلاق في الحمام، وابعث كذلك بالمدلكين.

فلما فرغ الشاه من حمامه، ولبس عمامته وجبته، استقبل وكيل القصر فأفضى إليه بآخر الأنباء، ثم اتجه، يسبقه عبد يحمل مصباحًا، إلى قمة البرج الكبير الذي يشرف على ساحة القصر. فألفى كبار رجاله في انتظاره،

وبينهم سبعة وعشرون شابا من أبناء أمراء الأقاليم، بين غزنويين، وبلخيين وغيرهم، هم رهائن تحت يد البادي شاه حتى لا يجسر آباؤهم على شق عصا الطاعة. فما أهل البادي شاه حتى نفخ الحاضرون في الأبواق نوبة تحية للشاه مُحَمَّد علاء الدين سلطان خوارزم، سيف الإسلام المسلول، وخليفة الإسكندر ذي القرنين في البأس والحول والطول. فهكذا كان يدعو البادي شاه نفسه!

فلما انتهت "النوبة" أمرهم البادي شاه بالانصراف، ثم خلا إلى نفسه في سكون السحر، يفكر في قول جميل النافرة المتكبرة، حتى هداه تفكيره إلى أن خير وسيلة لإخضاعها وتخويفها، أن يدخل عليها في المساء، إذا أحضروها إلى قاعة الطنافس، فهده الأليف، ليرى ماذا ستصنع حينئذ، وهل سيخونها جلدها أم تظل على إبائها واستكبارها.

ومن أسفل البرج، انطلقت صرخة قوية تجاوبت في سكون الليل:

– أيها المؤمنون! يا أتباع الحق والسنة والصدق، إن الشاه محمدًا علاء الدين قد أشاح بوجهه عن سنة الإسلام، وفتح قلبه ليدع الشيعة، وجعل خاصته ونجوى سره للأعاجم والكبشاق. لقد كان أبوه تركمانيًّا شريفًا، أما مُحَمَّد فقد أنكر قومه وتبع أمه، فانبذوه ولا تطيعوه!

فصاح الشاه بوكيل القصر:

– من هذا الكلب الذي ينبح في قصري؟ هل أفلت منك زمام النظام!

– إنه الدرويش مجد الدين يا مولاي، وهو محبوس في أسفل البرج، تحت سطح الأرض، ولكنه لا يكف عن هذا الصياح. وقد نما إلينا أن

الدراويش اجتمعوا أمس وقرروا الزحف على السجن لتخليصه. وأظن أن مثل هذا الزحف يصعب التصدي له.

– اذهب إذن إلى "شاهان بهلون" كبير الجلادين، ومره أن ينفذ فيه قضاءه قبل أن يحضر الدراويش لإنقاذه.

ونزل السلطان مُحَمَّد من قمة البرج إلى قاعة الاستقبال، فألفى الأئمة الثلاثة في انتظاره، فاضطجع على حشية ناعمة، ووضع قدميه في حفرة في الحائط معدة للتدفئة في فصل الشتاء، لأنها تتصل من الجهة الأخرى بموقد للفحم بنظام معلوم. ثم سأل الأئمة الثلاثة أن يفتوه في أمر الخليفة البغدادي، وهل يحل للشاه أن يطلب من الخليفة أن يخضع له ويؤدي له الجزية، وماذا عساه أن يفعل إذا رفض الخليفة الطاعة والجزية؟

وأفتى الأئمة أن السلطان مُحَمَّد هو حامي الإسلام، وأنه هو وحده الواجب الطاعة في رقاب المؤمنين، فانفرجت أساريره، كأنما المساكين الثلاثة كانوا يستطيعون القول بخلاف ذلك. ثم أمر أن يحضر إليه طعام الإفطار، لأن نفسه هشت للأكل بعد هذا النبأ السار. وسرعان ما جاء صاحب المائدة بأطباق الفضة، وأصونة الذهب، عليها الفطائر، والشاي الممزوج بدهن الضأن، والشهد والزبد. فطعم الشاه، ثم استلقى فأغفى، وانصرف من بالمجلس، إلا الحاجب الأسود الواقف بالباب.

فلما كان الضحى، بدا الشاه على قمة البرج للشعب المحتشد في الساحة الكبرى أمام القصر، حيث نصبت في وسطها منصة الإعدام. فوقها نطع كبير، وسلة تلقى فيها الرؤوس التي تشخب دمًا.

ثم فتحت بوابة السجن في أسفل البرج، وجعل المحكوم عليهم يخرجون منها مثنى، تربطهم جميعا سلسلة ثقيلة لها صليل صارم، وعلى أجسادهم بقية من أسمال أكلها البلى، وقد تراكمت الأقذار والرطوبة على هياكلهم المتداعية، وطال شعرهم وأظافرهم، وقد أخذوا يتساندون، وعيونهم مغمضة، لأن عتمة السجن تحت الأرض جعلتهم لا يستطيعون مواجهة النور الذي خرجوا إليه فجأة.

وانكفأ أحد المسلسلين، وكان شيخًا فانيًا، فسقط بسقوطه اثنان آخران، فأنهضهم الحراس بالضرب والركل، واستأنف الركب التعس سيره إلى منصة الإعدام في وسط الميدان. ثم جعلوا يأخذونهم واحد بعد واحد، فيركعون أمام النطع، ويمسك أحد الجلادين بشعر الواحد منهم ليرفع رأسه، ثم يهوي شاهان بهلوان كبير الجلادين بسيفه فيفصل الرأس بضربة واحدة.

ولما بلغ عدد المقتولين على هذا النحو أربعة عشر رجلًا، تنادى الناس بالصمت، فالبادي شاه سيتكلم، واشرأبت الأعناق، فإذا السلطان مُحَمَّد يلوح بمنديله في الفضاء، علامة العفو!

ولم يكن قد بقي في الصف الطويل إلا سجين واحد، هو الغلام اليافع طوقان. ومسح بهلوان الدم عن سيفه بعناية، وصاح:

– هاتوا الحداد، لكي يكسر الأغلال عن هذا الغلام.

وكان الغلام يحملق حوله، غير فاهم مما يجري حوله شيئا، لشدة ما انتابه من الرعب. وإذا أيد كثيرة تمتد إليه لكي تغرس رأسه في التراب؛ إنه

السجود بين يدي السلطان شكرًا على العفو السامي!

وبدأ الحداد يكسر الأغلال عن قدم الغلام، ففصل أولًا الحلقة التي تحيط بساقه عن سائر السلسلة، وهم أن يكسر هذه الحلقة نفسها، ولكنه لم يجد الغلام أمامه؛ فقد أطلق ساقيه للريح، واختفى في الزحام، قبل أن يعدلوا عن رأيهم في العفو عنه.

حياكة الظل!

واخترق طوفان الجمع المحتشد في الميدان الكبير، حتى بلغ حارة نفذ منها إلى شاطئ النهر، فوجد عليه سفنا تحمل البضائع أكداسا. فجعل يحملق فيها، ويقول في نفسه:

- إن سفينة من هذه السفن قمينة أن تحملك بعيدًا عن السجن وذكرياته الأليمة. ولكن من ذا يقلك في سفينته وأنت بالي الثوب، شديد القذارة، وقد أكلت جسمك الرطوبة!

ورأى جانبا من الشاطئ قد انحسر عنه الماء، فهبط إليه، وغاص في النهر، فاستحم كيفما استطاع، ثم غسل ثوبه البالي، ورقد يتشمس، وقد استغرق في التفكير في أحواله مرة أخرى:

- ماذا عسى أن يصيب من الرزق سجين خارج من الحبس؟ كيف تراه يعيش؟ من ذا يقبله في بيته أو متجره؟

ونظر إلى عقبه الذي يحيط به ما بقي من قيده السابق، وقد نقشت عليه هذه الكلمات "إلى الأبد، حتى الموت"، واستطرد يقول لنفسه:

- لا أحسب أحدا يهتم بأمري سوى ميرزا يوسف، ولكنه لا شك يخاف عاقبة إيواء سجين سابق من سجناء الشاه! أما بنت زنجية فأحسبها وحدها هي التي تجسر على هذا الأمر ولا تتهيبه. ولكن كيف السبيل إليها، وكيف ألجأ إليها وأنا مشوه الجسم بآثار السجن كمن به برص؟ ويجب أولًا أن أطرح عني هذا القيد، فلأذهب إلى حداد ليكسره عني. ولكن أي حداد يفعل هذا وليس معي فلس واحد؟

وأخذ طوقان سمته إلى سوق الحدادين، فرأى في الطريق إليها أكداس المتاجر ملقاة على جوانب الطريق، وقد ضاقت بها الدكاكين الزاخرة بكل ثمين.

وكانت الشوارع مسقوفة بالحصير، فالشمس لا تتسرب إليها. أما سوق الحدادين، ففيها أشعة متوهجة رغم هذه السقوف، تنبثق من الأتون، ومن الشرر الذي تقدحه المطرقة من السندان.

ومعظم الذين يدقون بالمطارق، ويتعرضون لوهج النار، ويصوغون الحديد والنحاس في أشكال دقيقة، من العبيد الروس أو الصقلب، الذين يقتنصهم النخاسون من أطراف تلك البلاد.

وكان طوقان في أول أمره "صبيًّا" في دكان قره مقسوم الحداد، فاتجه إليه ليفك عنه قيده، ولكنه زجره وانتهره، فمضى عنه حسيرا، وهو لا يدري أين يذهب، ولا يعنيه أيضًا أين يذهب، لشدة ما يعانيه من السخط والكرب. وظل يضرب على غير هدى في السوق، حتى رأى جانبًا من الطريق وصلت إليه الشمس من فرجة في حصير السقف. وفي هذه الرقعة

المشمسة جلس درويش أمامه مرقعة كثيرة الألوان، يحيك بعضًا منها أدركه البلى. ووقف طوقان يتفرج على هذا الدرويش، فسقط ظله بين ساقي الدرويش على الدراعة المرقعة. فرفع إليه الدرويش بصره وقال له:

– أيها الفتى! لقد سقط ظلك على هذه الدراعة وأنا أحيكها، وقد حكت ظلك فيها بهذه الإبرة. وقد أصبحت بهذا مرتبطًا بي لا ينبغي أن تفارقني أبدًا، بل تتبعني كظلي أينما ذهبت.

فجلس الفتى إلى جوار الدرويش وقد آنس إليه وقال له:

– أتسخر مني أم تجد في القول؟ فإني والله على استعداد لملازمتك والقيام بخدمتك ما دمت راغبًا في صحبتي، ولكن على ألا تضيق بها.

– يا بني! إن العالم كبير، وأرض الله واسعة. فتعال معي، نطف أرجاء الأرض، سنذهب إلى بخاري الساعة. فهيا بنا.

وانطلقا. حتى إذا بلغا في أطراف المدينة حدادا متنقلا، أعطاه الدرويش درهما، فكسر الغل عن ساق طوقان، وصنع لهما من حلقه سكينا، بحيث احتفظ النصل بالكتابة التي كانت على القيد، وهي "إلى الأبد. حتى الموت".

وعادا مرة أخرى يخترقان شوارع جرجان، ويجوسان خلال السوق العامرة بالمتاجر والنفائس.

الدرويش يسير صامتا، والفتى يسير وراءه صامتا كذلك، فإلى أين؟ هل إلى غاية مرسومة. أم هو خبط عشواء الليل؟

جعل الحاج عبد الرحيم وتابعه الجديد –وهو شقيقه الأصغر في واقع الأمر– يجوسان خلال السوق، ويقف الدرويش بكل دكان، كأنه يتشمم العطور ورائحة التوابل التي تنبعث من بعضها، أو يمتع النظر بالحرير والدمقس والفراء الذي يتناثر في بعضها الآخر. وكان التجار يظنونه يقف بأبوابهم في طلب الصدقة. ولا عجب! فكفه مبسوطة للسؤال. وفيها طبق لجمع الصدقات على عادة الدراويش الفقراء في ذلك الحين، ولكن الحاج عبد الرحيم كان في الواقع يدقق النظر في التجار أنفسهم لا في البضائع، كأنه يفتش عن شخص معين.

ووجد الدرويش ضالته آخر الأمر. وكان ذلك أمام دكان من أغنى الدكاكين، جلس على بابه رجل شاحب الوجه من أثر مرض طويل، وحوله تجار كثيرون يسلمون عليه، وكانوا يخاطبونه باحترام شديد. فوقف عبد الرحيم أمام هذا الجمع، فأسرعوا يلقون في طبقه بالدراهم. ولكنه لم ينصرف، فصاح به بعضهم:

– لقد أخذت ما قسم الله لك من الصدقة. امض على بركة الله!

– بيد أنه لم يمض، ولم يتحرك، ولم يجب. فرفع التاجر الهزيل وجهه إليه، فألفاه يحدق فيه، فسأله: "ماذا تريد مني؟".

– يقولون إنك رجل ذو نفوذ ورأي، وعندي لك سؤال أحب أن ألقيه عليك. فماذا أنت قائل؟

– تكلم أيها الدرويش!

– إذا كان لك صديق صدوق شاركك الضراء، والسفر الشاق، وتحمل معك مكاره الجوع والعطش، وحر الصيف وقر الشتاء، فهل يرضيك أن يفرق الناس بينك وبينه؟

– ولكن لماذا فرقوا بينك وبين صديقك أيها الدرويش؟

– إن كنت تسأل عن سبب التفريق بيننا، فاعلم أن هذا التفريق كان السبب فيه تاجر.

– وما خطب هذا التاجر؟

– هذا التاجر وجدته جريحًا، وقد سطا عليه اللصوص، وتركوه على شفا الموت. ففعلت في سبيله كل ما في طاقتي المحدودة. ضمدت له جرحه، وربطته له بشملة، وحملته على بعير قاصدًا به بلده جرجان، لولا أن حيل بيني وبين ذلك قبل أن أبلغها. وحفظت له صقرًا ذهبيًّا.

وما بلغ هذا الموضع من كلامه حتى قاطعه التاجر صائحًا به:

– لا تزد! كلنا نعلم ماذا حدث بعد ذلك للتاجر الذي تتحدث عنه فها هو ذا أمامك. وطالما بحثت عنك لأعرب لك عن شكري وتقديري.. ولكن خبرني من صديقك الذي فرقوا بينك وبينه، فقد يتسنى لي أن أنتشله من محنته؟

– بل إنك وحدك الذي تستطيع أن ترد لي صديقي. على أنه ليس آدميًّا، بل هو كالشيطان له ذنب! إنه ليس إلا حماري، الذي سلبني إياه حكيم البلدة التي تركتك بها لتبل من جرحك فلعلك تعوضني عنه حمارًا آخر،

يؤنسني في سفري ويحمل عني زادي. وهذا كل ما أسألك إياه أيها السيد.

– بل سأرد إليك حمارك نفسه، بلحمه ودمه. فقد اشتريته من الحكيم وهو في فناء داري هنا. ولكن هذا لا يكفي قيامًا بحقك، هذا دكاني خذ منه كل ما شئت من فاخر الملبوس وفاخر النعال.

– إنني درويش، نذرت العفة والفقر للمولى المتعال، ولا ينبغي لي أن أنتعل أو ألبس إلا ما يتفق وهذه الحال. فجبتي هذه تكفيني، على ما بها من بلى ورقع. ولكنني أرغب إليك أن تكسو ظلي الذي يشكو العرى!

فضحك التاجر حتى استلقى، وقال للدرويش:

– ونحن عند طلبك أيها الدرويش، ولكن كيف بالله تكسو ظلك يا حاج؟ فأشار الدرويش إلى طوقان الذي يسير وراءه وقال: "هاك ظلي!".

فصفق التاجر بيديه، فأقبل عامله من داخل الدكان، فصاح به:

– يا حسن! خذ هذا الصبي إلى قسم الملبوسات، وأعطه كل أنواع الثياب التي تلزم لمسافر في رحلة طويلة! أما أنت أيها الدرويش الفاضل، فاقصدني في داري إذا صليت العشاء، وسيدلك حسن على موضع بيتي.

وفي المساء استقبل التاجر محمود غلوش الحاج عبد الرحيم، وتعشى معه، ثم استرد منه الصقر الذهبي، وقال له وهو يودعه:

– مهما حدث من الأمور، فاعلم أنني دائمًا في خدمتك أيها الدرويش،

وبيتي مفتوح لك على الدوام.

– شكرًا لك يا سيدي. والآن استودعك الله، فقد حان موعد رحيلي إلى بخارى، ومنها إلى حيث يشاء الله أن يسوق خطاي.

وأخذ حماره، وظله، وانطلقوا.

السلطانة تدبر أمرًا

كانت القلاع المقامة وسط المدائن الإسلامية لا في أطرافها أو عند أسوارها تعرف باسم "الفلك" لتوسطها البيوت كتوسط السفينة ماء البحر.

ومن "فلك" جرجان خرج الفرسان ذات صباح مثنى مثنى، على جياد مطهمة، وعليهم أردية من حرير فاخر، وفي خواصرهم السيوف المذهبة الأغماد.

وهذا هو السلطان مُحَّد، البادي شاه، عاهل خوارزم، يسير في مقدمة الركب، مستقرًّا في وقار على سرج جواده العريض الصدر، المسرج بالذهب المرصع بالجواهر، تميزه عمامته الحريرية البيضاء الكبيرة، المرصعة بالدر واليواقيت. وأما قباؤه الأرجواني، فكان يتوهج في ضوء النهار توهجًا لا يباريه إلا التماع سيفه الذهبي الذي تزين قرابه ماسات ويواقيت ثمينة.

وفي أعقاب البادي شاه فارسان أحدث سنًّا، أحدهما فوق جواد أسود كفحمة الليل الحالك، وفي جيده طوق من فضة، وذلك هو الأمير جلال الدين، أكبر أبناء الشاه، من أم تركمانية. وإلى جواره فارس أصغر منه بكثير، على جواد أهدأ عصبا وأسلس مقادا، له مرفة طويلة سوداء. وهذا

الغلام هو أصغر أبناء الشاه وأحبهم إليه، وأمه أميرة من الكبشاق، وهم قبيلة أم الشاه، والطبقة العسكرية الأرستقراطية في خوارزم، وهم إلى هذا ليسوا من أهل البلاد الأصلاء.

ووراء هؤلاء الفرسان الثلاثة وجوه الديار الخوارزمية في ملابسهم الأرجوانية الرسمية.

وقد انقسم الألف فارس الذين يتكون منهم حرس الشاه فريقين: فريق منهم يشق الطريق للعاهل بالسياط يلهب بها ظهور السابلة في الشوارع، والفريق الآخر يحيط بالشاه إحاطة السوار بالمعصم.

وكل من مروا به في الطريق، كان يلقي بنفسه في الأرض في تطامن شديد، ويعفر جبينه بالتراب بالسجود. فليس من اللائق أن ترتفع عين إلى سيد أهل الوجود.

وكان السلطان مُحَمَّد قد تعود هذا الولاء، وألف الهتاف والدعاء، حتى صار يمر بالساجدين والضارعين، غير مكترث لما يفعلون أو يقولون، وغير ملق بالا إلى شيء مما بين سمعه وبصره! حتى بلغ ركابه مدخل قصر السلطانة الوالدة "طرخان خاتون"، فإذا على الجانبين جنود مختارون، عليهم الحلق المضاعف الذي اشتهرت به خوارزم، فلا تنفذ منه السهام، وفوق رؤوسهم خوذات، وفي أيديهم الرماح المشرعة، فهتفوا للشاه هتافًا عظيمًا ردده من ورائهم الجمع المحتشد.

ودهش السلطان مُحَمَّد لهذا الذي رآه من احتشاد الجند عند أبواب قصر أمه، فهم من عشيرتها الكبشاق. لماذا حشدتهم أمه؟ أهو كمين نصبته

له؟ أوَليس من الخير أن يعود أدراجه الساعة من حيث أتى؟ ولكن ما الداعي إلى التوجس والريب؟ إنها أمه، ومهما يكن من أمر، فلن تقدم أم على الإيقاع بولدها. ثم أليس قد منحها من المزايا والحقوق والنفوذ يعدل نفوذه، منذ مات والده السلطان طقش. ومن أجلها جعل للجنود الكبشاق الصدارة على كل جنده، وأشركهم في جميع حروبه ووقائعه، بحيث يحملون إلى خيامهم وبيوتهم النصيب الأوفى من الغنائم والأسلاب، مما لم يحلموا بالظفر به يومًا؟

إلى الأمام!

وضرب جواده بطرف سوطه، فقفز به قفزتين صار بهما في الصحن الداخلي لقصر السلطانة، حيث استقبله أشياخ من أمراء الكبشاق، تناولوا عنان فرسه ريثما نزل عنه فوق بساط من المخمل الأحمر، فصعد الدرج قفزا بين صفين من الظهور التي قوسها فرط الانحناء حتى دخل أبهاء القصر الرطبة، فبرز أمامه خصي أسود في أنفه حلقة من الذهب وقال له:

– السلام على عظمتكم! إن ملكة الملكات في انتظاركم!

وأزاح بيده جانبا من ستار ثقيل وصاح بصوت مرتفع:

– ملك العالم، وحامي شئون الملة، وسيف الإسلام المسلول!

وتقدم البادي شاه إلى الحجرة التي يقل فيها النور لإقفال نوافذها وينطلق فيها بخور العود والند، فوجد في صدرها هيكل امرأة دقيقة التكوين، في ثوب مزركش بالذهب، ضخم الذيول، وحولها نصف دائرة من وجوه عشيرتها الكبشاق ساجدين، فانحنى أمامها وتقدم منها وهمس إليها

بالسلام.

– السلام على طرخان خاتون، مصباح العفة ومثال العدل!

فتقدمت السلطانة إلى العرش فجلست فوقه وأجابت ولدها السلطان:

– أمك، الأرملة المسكينة تتقدم بالتحية إلى سيد الدنيا وحاكم العالم أجمع. أسعدني يا ولدي بالجلوس إلى جواري.

ونظر السلطان، فإذا المكان الذي تشير إليه أمه بجوارها على العرش أصغر من أن يسعه، لأن أذيالها الضخمة تحتل أكبر مكان فوقه، فلم يجد بدًّا من الجلوس أمامها على وسادة فوق البساط. وهو ما رمت إليه أمه فعلًا، لكي تبين لأمراء الكبشاق أن لها اليد العليا، وأن البادي شاه يجلس مجلسًا أدنى من مجلسها!

وبدأت طرخان خاتون الحديث بصوت رفيع منخفض، وجسمها كله يهتز مع مخارج الحروف لانفعالها الشديد. قالت:

– لقد دعوتك يا ولدي العظيم المحبوب، لكي نتدارس معا مسائل من أهم أمور الدولة، يرتبط بها مصير سلالتنا ورفاهتها، ومصير أمراء الكبشاق المخلصين لها. فيجب علينا يا ولدي أن نؤمن عرشنا، ونفوذنا وأصدقاءنا. لقد بلغني أنك مزمع أن تخرج إلى حرب جديدة، لتغزو بغداد. فإن أنت سقطت في الميدان، ومت شهيدا، من ذا الذي يصرف الأمور في مكانك، ويسدد خطانا من بعدك؟ هذا ولدك الأكبر، جلال الدين، يلوذ بعشيرة أمه التركمان، ويأتمر معهم ويتحين الفرص للقضاء

علينا نحن الكبشاق. أفليس من الخير إذن أن تسمى منذ الساعة ولي عهدك، وأن تعين من يصرف الأمور أثناء غيبتك عن أرض خوارزم، غيبة مؤقتة بالحرب الظافرة، أو غيبة مؤبدة لا قدر الله بالشهادة؟

وتصايح الأمراء الكبشاق:

– كلام سديد! أثمن من الجواهر، الله أكبر!

واستطردت السلطانة:

– لهذا قر رأيي يا ولدي، بعد مشاورة هؤلاء السادة الأمراء الكبشاق، على أن خير حل لهذا الموضوع، أن تعلن ولي عهد السلطنة ليس ابنك الأكبر، بل ابنك الأصغر قطب الدين إصلاح شاه، ابن زوجتك الوفية الكبشاقية وأن ترسل جلال الدين واليًا على أقصى بلاد ملكك، لأنه خطر قائم دائم عليك وعلينا على السواء!

وسكتت السلطانة. وصمت الكل، في انتظار جواب السلطان مُحَمَّد الذي ظل ساكنا، يعبث بلحيته السوداء في حركة عصبية تدل على الحيرة الشديدة. فقالت له أمه بحزم:

– وإذا أنت أبيت أن تجيبنا إلى هذا، غادر جميع الكبشاق أرض خوارزم إلى مراعيهم البعيدة، وخرجت أنا أيضًا معهم، فلست بالتي تتخلى عن عشيرتها في محنتها.

ولما رأت الشاه لا يزال مترددا، أشارت برأسها إشارة طفيفة إلى ناظر خاصتها، وهو مُحَمَّد بن صالح، فانسحب إلى غرفة أخرى ولم يلبث أن عاد

ومعه غلام في السابعة من عمره عليه قباء مذهب، فصاحت السلطانة بالحاضرين في صوت أجش أمر:

– هاكم ولي عهدكم الجديد أيها السادة!

فهب الحاضرون وقوفا، وانحنوا خاضعين، ثم رفعوه فأجلسوه على العرش إلى جانب جدته، فالمكان يتسع لجسمه الصغير في حين لم يتسع لأبيه منذ قليل. ووقف السلطان مُحَمَّد، وأشار بيده إلى الأمراء الكبشاق أن ينصتوا ثم قال:

– أيها البكوات! ها أنتم أولاء ترون رغباتكم قد تحققت، فلتسارعوا إذن إلى تحقيق رغبتي. إن عدوي القديم الخليفة الناصر يؤلب عليَّ عشائر رعيتي على تخوم بلاده، ووالله لن يكون في خوارزم سلام ولا أمن حتى نخلع هذا الخليفة ونجعل مكانه خليفة آخر من صنائعنا. لهذا قد قر قراري على أن أتوجه لحرب الخليفة الناصر، حتى أهزم جنده وأطأ أرضه!

فوقف أسن الأمراء الكبشاق وهو شيخ كاد يذهب بصره، ولحيته التي بيضتها السنون قد ذهبت أيضا بأكثر ما كان فيها من شعر، وقال للبادي شاه:

– كلنا على استعداد يا مولاي لحمل السيف إلى صدور أعدائك. ولكن ينبغي أولا أن نبعث الطمأنينة إلى قلوب شعبنا ونؤمن مضاربه، فقد جاء الرسل من أرض عشائرنا أن قوما من الشرق لا يعرف لهم جنس ولا ملة، وليسوا على دين الإسلام الحنيف، قد جعلوا يغيرون على

مراعينا، فيستاقون القطعان، ويحتلون مواقع العشب، فلنذهب أولا إلى بلادنا لنحصنها من الغزو والعدوان، ونكسر شوكة هذا العدو العادي.

وتصايح بقية البكوات: "إلى مراعي الكبشاق يا جلالة البادي شاه".

وفي هذه اللحظة دخل كبير الكتاب وفي يده قلم، فركع أمام البادي شاه ورفع إليه قلمه ورقعة كبيرة من الورق محبرة. فقال له الشاه مُحَّد: "وما هذا؟".

– هذه يا مولانا وثيقة الإرادة الشاهانية، التي تنتقل بمقتضاها وراثة العرش إلى أصغر أبنائك قطب الدين إصلاح شاه، وتكون الوصاية على العرش حتى يبلغ سن الرشد لجدته، والدتكم السلطانة طرخان خاتون. وأما تعليمه وتأدبه فيسند إلى مُحَّد بن صالح ناظر خاصة السلطانة الوالدة الوصية، والذي يصير في تلك الحالة وزير دولة خوارزم.

وتناول السلطان مُحَّد الوثيقة فمهرها بتوقيعه، ثم أعطى القلم إلى والدته، فوقعت بحروف واضحة توقيعها الطويل الآتي: "طرخان خاتون، عاهلة الدنيا وملكة جميع نساء العالمين".

ونظر الشاه حوله يفتقد ابنه الأكبر جلال الدين، الذي أزيل بهذه الوثيقة عن ولاية العهد، فلم يجده، وهمس وكيل القصر في أذن البادي شاه أن جلال الدين عندما رأى جند الكبشاق في بزة القتال أمام باب القصر، لم يتبع والده في الدخول، بل عاد أدراجه لأنه توجس من ذلك خيفة.

في قاعة السجاد

وكان شاه خوارزم يصرف أمور دولته المترامية الأطراف في حجرة من أبعد حجرات قصره عن الناس، تفصلها عن سائر الغرف دهاليز كثيرة، ودون بابها حراس دونهم حراس، فللحيطان آذان كما يقولون. ولهذا جعل هذه الحجرة بغير نوافذ، وجعل جدرانها سميكة، وأبوابها مضاعفة، وعلى الجدران والأبواب ستائر ثقيلة، كلها من نوع السجاد الفاخر، حتى لا تصل إليها أذن أو عين.

وفي قاعة السجاد هذه تعود البادي شاه أن يقابل كبير جلاديه أو وكيل قصره غير متحرج، فيتلقى التقارير عن دسائس الحريم، أو يلقي الأوامر السرية بالإيقاع بمن يشاء خلسة، لجرأة أبداها في الحديث، أو لتلكؤ في تقديم الجزية السنوية.

وكثيرًا ما شهد الليل، بعد اجتماعات هذه القاعة الرهيبة، جثثًا تلقى في النهر السريع التيار وقد فارقتها رؤوسها التي لا تتمتع برضا السلطان!

وفي ليلتنا هذه، جلس البادي شاه السلطان مُحَمَّد في قاعة السجاد صامتا وقد استغرق في التفكير. ثم دخل عليه وكيل القصر وأخذ يسرد على مسامعه أسماء الذين زاروا قصر البستان، حيث ينزل ابنه المغضوب عليه جلال الدين خان:

– لقد جاءه من سهول التركمان ثلاثة فرسان على جياد رائعة، وكان أحدهم يخفي وجهه بوشاح. ولوحظ عليه أنه حديث السن، متين البنية، له عينان نفاذتان كعيني الصقر.

– ولماذا لم تلق القبض عليه؟

– لقد جعلت له كمينا قوامه أربعون جنديا من الكبشاق الأشداء، لكنه لم يظهر له أثر، وقد سمع جواسيسي في السوق اسم قره قنشار يتردد على بعض الألسنة.

– أجل يا حضرتلرى! لم نكن نظن أنه ينزل إلى هذا الدرك فيتصل بلص خارج على القانون ومتمرد على طاعة السلطان.

– كل شيء أصبح جائزًا في هذا الزمان المنحوس.

– ألا ترى مولاي أن سفرا طويلا يبعد به جلال الدين خان عن خوارزم، مثل رحلة الحج إلى البيت الحرام، قد تساعد على استقرار الأمور في جرجان، وتضع حدًّا لمؤامرات التركمان؟

– لقد عينته حاكما على غزنة، على حدود بلاد الهند، ولكن هذا قد يتيح له أن يجمع حوله بعض الساخطين، ويقنعهم بالزحف معه على بلاد الصين مثلا. وإذا فعل هذا، أضحت بلاد خوارزم محصورة بجنده من الجهتين، وسقطت في يده ثمرة جنية. كلا يا صاح! دع جلال الدين هنا، تحت يدي، فهذا أنفى لخطره، وأوهى لذراعه.

– رأي سديد يا مولاي!

– لكن اسمع! حذار أن أسمع مرة أخرى أن قره قنشار حضر إلى جرجان، فإن رأسك حينئذ سيرفع، وقد تجرد من حدقتيه، فوق سنان ينصب على باب جلال الدين!

– حاشا يا مولاي! حاشا.

ثم انحنى، وانسحب خارجا بظهره.

ثم أدخل خصي عجوز أسود، وقال للبادي شاه:

– مولاي! لقد أمرتم أن تحضر قول جميل إلى حجرتكم الخاصة. وهي هناك الساعة في انتظار إرادة مولاي.

– بل هاتها هنا، في قاعة السجاد.

وخرج البادي شاه من الحجرة، كما ذهب الخصى لينفذ أمر السلطان.

ولكن السلطان لم يذهب بعيدًا، بل جلس في مخبأ خاص، يستطيع أن يرى منه ما يحدث في قاعة السجاد، على ضوء خافت يصدر من سقف تلك القاعة.

وتركت قول جميل نعليها عند الباب الذي فتحه لها الخصي الأمرد الضخم الأرداف، ودلفت إلى قاعة السجاد وأغلق الباب وراءها فتذكرت ما سبق أن سمعته من أن هذه القاعة كثيرا ما أعدم فيها البادي شاه زوجاته الخائنات، أو اللواتي يفقدن رضاه. يعدمهن شاهان بهلون كبير جلاديه، بينما هو ينظر من كوة خفية وهو في حجرة مجاورة.

ودارت قول جميل حول القاعة الخالية، كأنما لتكتشفها. ثم تناولت عددًا من الوسائد المحشوة بريش النعام فجعلت منها كومة في ركن من أركان القاعة، ثم استلقت عليها، وجميع حواسها متيقظة لأقل حركة أو صوت. وعلى حين غرة، انفرجت الستائر التي تغطي الباب عن رأس

حيواني أطل من بينها، وعيناه تلمعان في الضوء الخافت فتقذفان بشرر أخضر، فقفزت قول جميل من مكانها، وأسندت ظهرها إلى الحائط. وتقدم الوحش متسللا فوق البسط التي تغطي أرض القاعة، لا يسمع لحركته صوت. فصرخت، وقد جعلت من بعض السجاد مجنالها: "أدركوني.. أنقذوني.. النجدة".

ولكن قفزة الفهد ألقتها جانبا، وفوقها السجادة، فجعل ينشب أظفاره وأسنانه في السجادة السميكة، وقد أهاجه صياح الفتاة. وسمعت صدى لصراخها طرقا على الباب شديدا، وأصوات رجال، ثم حركة في الغرفة، ثم سكن كل شيء، وامتدت يد بشرية ترفع من فوقها السجادة.

وكان المنقذ فارسا، عليه سترة سوداء من الفراء، وقد تمزقت وجنته بقطع طولي ينزف منه الدم بغزارة. وقد أخذ يمسح الدم من سيفه الطويل في بعض سجاجيد القاعة، في حين أخذ الخصي الأسود يحاول إخراجه من الحجرة وهو يصيح به في صوت الخصيان الذي يشبه نقيق الضفدع: "كيف تجسر على الدخول إلى هذه القاعة المحرمة؟ وكيف تجسر على رفع يدك على فهد الشاه المدلل؟ ستسلخ حيًّا يا فتى!".

– دعني أيها العجوز الأمرد، وإلا ألحقتك بفهدك المدلل!

وحاولت قول جميل أن تقف، ولكن أعصابها خانتها، وأبصرت الفهد ملقى في وسط القاعة وقد طاح رأسه! ولا زال جسده الحار يختلج، وسمعت منقذها يوجه إليها الكلام قائلا برقة:

– هل أصابك مكروه يا خاتون (أي هانم)؟

– كلا! ولكنك مجروح جرحا شديدا أيها الفارس الباسل، والدم يقطر منك.

– هذا شيء يسير يا خاتون. إن الندبة على الوجه وسام الحرب الأعظم.

وفي هذه اللحظة اقتحم القاعة "تيمور مالك" قائد الحرس، ووقف بالباب عدد من الجند. وصاح تيمور مالك بالفارس قائلا:

– من أنت؟ وكيف دخلت الحصن؟ وكيف جسرت على ضرب الحراس؟ سلم سلاحك!

ولكن الفارس أغمد سيفه في أناة شديدة، وأجاب بهدوء أشد:

– وأنت، من أنت؟ يبدو لي أنك قائد الحرس، تيمور مالك. السلام عليك إذن. إنني هنا لكي أقابل جلالة الشاه في أمر يهمه إلى أقصى حد. فعندي أنباء سيئة من سمرقند.

وفي هذه اللحظة برز البادي شاه، وصاح بصوت كالرعد القاصف ويده على مقبض خنجره: "من هذا الوقح المقتحم؟".

– السلام على البادي شاه! إنك تتلهى في قلعتك بالقطط البرية تخيف بها النساء الضعيفات، والعالم يموج بأحداث جلى! فقد لقيت على طريق القوافل رسولًا من سمرقند ظل يعدو بجواده حتى نفق تحته، ثم ظل هو يعدو راجلا حتى أعياه العدو فتهاوى، وكان يصيح كالمجنون: "ثورة في سمرقند.. ثورة في سمرقند!" إنهم يذبحون هناك الكبشاق ويعلقونهم في الأشجار من أرجلهم، كأنهم ماشية معروضة في حانوت قصاب، وزوج

ابنتك، السلطان عثمان، حاكم سمرقند، هو زعيم هذه الثورة الجائحة. وقد هم أن يقتل ابنتك أيضًا، لولا أنها اعتصمت في قلعة حصينة مع مائة من بواسل الفرسان يسهرون على حمايتها ليل نهار.. ومعي الآن خطاب منها.

وانتزع البادي شاه اللفافة من يد الفارس، وأطاح غطاءها المعدني بحد خنجره، وجعل يجهد عينيه ليقرأ في الضوء الخافت، ثم صاح:

– لقد كانت سمرقند دائمًا وكرًا للفتنة يا تيمور مالك! ادعُ جيوش الكبشاق، فإني سائر بهم إلى سمرقند. وسأمثل بهؤلاء العصاة أشنع تمثيل. وخذوا هذه الفتاة إلى خيمتها التي تأبى إلا أن تبيت فيها كراهة منها لسقوف الحجرات، وادعوا لها الطبيب. وأنت أيها التركماني، ما اسمك؟

– وما في اسمي يا سيدي؟!

– إنك قد حملت إليَّ أنباء سود، والعرف يقضي بإعدام رسول البلية، ثم أنت قد قتلت فهدي المدلل، حتى أنني لا أدري أي عقاب أنزله بك!

فقال تيمور مالك: "هل تأذن لي يا مولاي في الكلام؟".

– تكلم يا تيمور مالك!

– إن شريعة الحرب يا مولاي تقضي بأن من أضاع يومًا، أو ساعة، أضاع من يده النصر. وهذا الفارس قد أظهر شجاعة وجهدًا مشكورًا كي يصل بخبر الثورة إليك في أسرع وقت، وحمل إليك رسالة من ابنتك، والرسالة تثبت أن ابنتك نجت من الموت، وهذا وحده خبر سعيد. ومن

أجل هذه البشرى يستحق هذا الفارس أن يغفر له ما تقدم من ذنبه مهما عظم، والفهود شيء يستعاض عنه. بل إن الشاه سوف يجد في هذا الفارس إذا اصطنعه فهدًا أضرى من الفهد المقتول. وإني أستأذنك أن أجعله على رأس مائة فارس من عشيرته التركمان، يكونون جزءًا من حراس جلالتكم الخاص.

ووقف الشاه مبهوتًا وهو يسمع هذا الكلام من قائد حرسه، فانتهز الفارس فرصة تردده وقال: "لقد فوضك الشاه في الحكم.. وقد حكمت، وحكم الملوك لا ينقض! فأين تريدون أن أضع هذه الفتاة التركمانية؟".

وتقدم فحملها تحت إبطه وخطا نحو عتبة الباب، ثم التفت قبل أن ينصرف وقال: "السلام على البادي شاه، من شيطان القوافل قره قنشار!".

ثم اختفى! والشاه لا يدري أيضحك أم يغضب، أما تيمور مالك فانفجر ضاحكًا وهو يقول لمولاه: "يا له من فتى! ومن عجب يا مولاي لا تثق بالتركمان، مع أنك تستطيع أن تغزو العالم كله بجيش فرسانه على هذا الغرار".

وسرعان ما رحل الشاه ليخمد ثورة سمرقند، فأرسلت السلطان قول جميل إلى برج العذاب الأبدي، حيث تثوي إلى أن تموت.

في بستان الأمير

وكان تيمور مالك جنديا محنكا ومحاربا قديما، شهد وقائع كثيرة حتى أضحى لا يخشى المخاطر.. وها هو يتجه في إقدام نادر وشجاعة أدبية إلى

بستان الأمير جلال الدين خان، غير آبه لغضب السلطان. فوجد الأمير متوعكا، وقد توسد ظل أيكة في الحديقة، مستغرقا في التفكير. وما إن رأى ضيفه حتى نهض ومشى نحوه ليستقبله، وهو يقول له:

- أهلا بك يا مالك! لقد دعوت كثيرا من أصحابي الذين كانوا لا يفارقونني، ولكن معظمهم أصابه المرض -بقدرة قادر- في هذا اليوم. ولم يلب دعوتي أحد سواك، اللهم إلا ثلاثة فرسان من التركمان. أما الباقون فما جرؤ أحد منهم على زيارة ولي العهد السابق، وحاكم غزنة التي يخيل إليَّ أنني لن أراها.

- هون عليك أيها الأمير. وعزاؤك الأكبر على كل حال أن أمر الشاه مطاع.

- أجل! وأكبر ذنبي عنده أنني ابن تركمانية، والكبشاق يريدون عليهم شاهًا من جنسهم. ولكن لماذا لا يتيح لي أبي أن أكون فارسا عاديا، أصول وأجول بين الفرسان في الحروب التي تقع على حدودنا البعيدة؟ الله أعلم أنه لا مأرب لي وراء حياة الجندية الناشطة. أما هذا الركود، فيقتل وجداني، لأنه شيء لا يليق إلا بالعجائز.

- صبرًا! فإن الحرب ستعرض نفسها عليك إذا لم تعرض نفسك عليها. فها هم الكبشاق يتأهبون للزحف -بناء على طلبهم- لرد عدوان المغول على أراضيهم.

- خير لأبي أن يطرد الكبشاق أنفسهم من خوارزم، ويحكم بدونهم، فإنهم قد أخلدوا إلى الترف والرفاهة، حتى انحلت نفوسهم، وسوف يخذلونه

في ساعة الشدة، ويتخلون عنه يوم الفصل إذا اعتمد عليهم في تحمل صدمات الحرب. إنهم ذئاب تعيش على الطمع والسلب.

وفي هذه اللحظة سمع من بين ألفاف الشجر خلف ظهر الأمير صوت خلي يقول:

– لقد دعوتني أيها الأمير، وهأنذا!

وبرز أمامه فارس تركماني شاب، عليه سترة سوداء من فراء الغنم، فهتف به الأمير مبتسمًا:

– إني لسعيد برؤياك يا قره قنشار هذا النهار. اجلس يا رجل وشاركنا الطعام.

وفي الطريق، كان علي شان من ضباط الحدود الشرقية يقود كوكبة من الفرسان بأسرع ما يكون، متجهًا بهم إلى قصر الشاه، فلم يكن يقف في طول الرحلة إلا لكي يطعم الخيل، فهو يخشى أن يصل بأسيره العجيب الذي يحمله إلى الشاه بعد فوات الأوان.

ولكن علي شان وجد طريقه مسدودًا عند أبواب جرجان، تجاه قصر البستان الذي ينزل به جلال الدين خان، ودعاه رجال الأمير أن يدخل القصر لمقابلته، فصاح بهم:

– أرجوكم أن تعفوني، لأننا في مهمة عاجلة، ويجب أن نصل بلا أدنى إبطاء لرفع تقرير هام إلى تيمور مالك قائد حرس الشاه.

– تيمور مالك هنا، مولانا الأمير جلال الدين، فادخل!

ودخل علي شان ورجاله بستان جلال الدين، ومعهم أسيرهم مربوطا إلى ظهر جواد، فنزلوا عن ظهور الخيل، أما هو فبقي حيث كان. وأمسك على شان بعنان جواد الأسير، فقاده حتى بلغ مجلس جلال الدين وتيمور مالك، وأمامهما سماط طويل ممدود، مفروش بالسجاد الفاخر، وفوقه أطباق من الفضة وأوان من الزجاج المنقوش من صناعة بلاد العراق. وفي الآنية والأطباق أنواع من المآكل والفطائر لا حصر لها، وألوان من الفاكهة الطازجة والجافة بعضها معروف له وبعضها له يسمع عنه قبل النوم!

ونهض الأمير الشاب للقاء ضيفه، فنهض معه تيمور مالك وقره قنشار وجميع من بالمكان من الضيفان والأحراس. ثم اتجه إلى الأسير المقيد إلى صهوة الجواد، فإذا هو مخلوق غريب الشكل والزي وتصفيف الشعر، ينتمي إلى عشيرة غريبة مما يعيش في أطراف البلاد إلى جهة الشمال أو المشرق. فسأل الضابط: "أين وجدتموه؟".

– في السهول القريبة من أوترار.. وهو شديد القوة، حتى لقد وجدنا عنتًا شديدًا في الاحتفاظ به. وهو يلوذ بالصمت ولا يجيب على أي سؤال.

– إن القيود تكاد تقتله. يجب أن تفكها عنه ليستطيع الكلام.

وصفق جلال الدين، فانحنى بين يديه غلام من غلمانه، فقال له:

– ادع زابان الطبيب. قل له إن رجلا يلفظ أنفاسه، نريد أن نعيد قدرة الكلام إليه.

وفي نفس الوقت، كان غلمان آخرون يفكون عن الأسير القيود، وقد أخذ يخرج من حلقه أصواتا غريبة، ثم أخذ يحاول الإفلات. فسأل جلال

الدين الضابط الذي أحضره:

– ماذا يقول هذا الغريب. أتعرف لغته؟

– إنه ينظر إلى خيل الأمير، ويبدي إعجابه بجمالها وقوتها. ولكنه يزعم أنها لن تبقى هنا، بل سيستولي عليها جنكيز خان الذي لا يقهر!

إنني رحلت في حراسة القوافل إلى الصين وبلاد المغول، لهذا أفهم لسانه.

– ولكن من هو جنكيز خان هذا الذي يصفه بأنه لا يقهر؟ ولماذا هو لا يقهر؟ وكيف يجرؤ هذا الرجل على مثل هذا الكلام؟

وصاح تيمور مالك: "إن وقاحته تفوق الحدود. أنذره أنه إذا عاد إلى مثل هذا الكلام، فإني سآمر بتقطيع أوصاله. البادي شاه وحده هو الذي لا يقهر".

ولكن جلال الدين قاطعه بهدوء حزم قائلا:

– دعك عنك هذه الحماسة التي لا تجدي في الواقعيات. إننا إذا تركناه على سجيته في الكلام كان ذلك أجدى علينا، لأننا سنعرف ما نجهل عن هذا التترى الذي يتحدث عنه بكل هذا الرعب.

وفي هذه اللحظة سمعت من بين ألفاف أشجار البستان أهازيج عالية، في صوت كله نشاز، تتضمن دعوات للأمير جلال الدين، ولأبيه سلطان خوارزم وحامي حمى الدين. ثم ظهر رجل دقيق الحجم، له لحية طويلة، وعلى رأسه عمامة غاية في الضخامة، وفي يمناه جرة من الفخار، وفي يسراه

جراب من الجلد، حتى إذا بلغ موضع الأمير قبل الأرض بين يديه، وصاح بحركة مسرحية: "لقد انتشلتني دعوة مولاي من غياهب القنوط. فأي شرف أضفاه مولاي حفظه الله على عبده الخاضع وخادمه الأمين!".

فقاطعه الأمير قائلا: "هذا رجل نريد أن يقوى على الكلام حتى نعرف منه أنباء هامة قبل أن يموت".

وأقبل الطبيب على المريض، فأعراه من ثيابه، ثم جعل يدلك له صدره بزيت خاص صبه من قارورة كانت معه، وعالج جراحه بأدوات من العاج، ثم قال للأمير:

- إن الرجل يحتضر يا مولاي.. ولكن إذا أمر مولاي بجرة من النبيذ المعتق لأعد منها بعض أخلاط أعرف سرها، تسنى لي أن أجعل هذا المريض يقوى على الكلام يومًا أو يومين.

وجيء بالنبيذ، وأقبل الطبيب يصنع منه أخلاطه، ثم صب منها في حلق الرجل، فما لبث أن أفاق، وانطلق يتكلم، وكان كلامه في بادئ الأمر مزيجا من الصراخ والغناء والضحك، حتى إذا هدأ قليلا، بدأت عباراته تتضح، وأخذ الضابط يترجم عنه ما يقول:

- بلادي أجمل بلاد العالمين، لا يدانيها في طيب الهواء والثمرات والحيوان مكان. اغتصبها عدو متوحش، خيله الصغيرة لا تدرك، وسلاحه لا يعرف الرحمة.. مراعينا ملأها بقطعانه وجيوشه وخيله ورجله، فلم يعد لنا مكان إلا بين الصخور الجرداء. أغنامنا لم تعد تجد المرعى، وخيولنا أدركها الهزال، لأن المغول بقيادة عاهلهم الدموي السفاح جنكيز خان،

ذي اللحية الحمراء، قد اجتاحوا كل شيء. هذا العاهل الذي لا يقهر سوف يفتح العالم كله ويجعله خرابًا يبابًا بعد حين.

فسأل جلال الدين في دهشة:

– ولكن من جنكيز خان هذا الذي يتحدث عنه بكل هذا الإطناب!

البادي شاه يزحف

أسرع الشاه مُحَمَّد، سلطان خوارزم، زاحفا من جرجان إلى سمرقند، وقد استبد به الغضب، عاقدا العزم على أن ينتقم لنفسه شر انتقام من زوج ابنته السلطان عثمان، ومن أهل سمرقند الذين أعانوه على شق عصا الطاعة.

وحاصر السلطان مُحَمَّد مدينة سمرقند، وأعلن على الملأ أنه لن تأخذه بأهلها رحمة، وقاوم أهل المدينة مقاومة شديدة، ولما اقتحم عليهم الشاه أسوارهم، حصنوا البيوت، وأقاموا المتاريس في الشوارع، ولكن هذا كله لم يجد نفعا، واضطر السلطان عثمان أن يلجأ إلى حميه في طلب العفو والرحمة للمدينة وأهلها، فذهب إليه وفي يمناه كفن، وفي يسراه سيف مسلول، آية على الخضوع التام وقبول أقصى العقاب، وهو الإعدام بحد السيف. ورق قلب الشاه مُحَمَّد لرؤية زوج ابنته على هذه الصورة، يعفر جبينه بالتراب بين يديه، ومال إلى العفو عنه. ولكن ابنته، زوجة السلطان عثمان، التي صمدت في قلعة وسط المدينة لحملات زوجها وجنوده، أصرت على إعدامه ولم ترض بالعفو عنه، فأعدم في جوف الليل، وقتل كذلك جميع آله وأولاده، حتى انقرضت بذلك سلالته التركية الأصل.

ولا تسل عن قسوة الفرسان الكبشاق وسوء أفاعيلهم بأهل المدينة

المغلوبين، حتى إنهم ذبحوا منهم أكثر من عشرة آلاف نسمة، إلى أن أوقفتهم عن الاستمرار في هذه الفظائع زعيمتهم السلطانة طرخان خاتون، أم الشاه مُحَّد، التي كانت على غلظة كبدها ذات فطنة وذكاء، فأدركت أن الإبقاء على شيء من الأهلين شيء واجب، لكي يعمروا الديار ويؤدوا الضرائب في مقتبل الأيام لخزانة الدولة.

وقرر السلطان مُحَّد أن يجعل سمرقند عاصمة ملكه، بعد أن كانت تلك العاصمة هي جرجان، وأمر ببناء قصر فخم بها ليقيم فيه.

ولما فرغت تلك الحملة، طالبه الأمراء الكبشاق أن يوجه جيوشه إلى مراعيهم النائية، لينتقم لهم من المغول الذين عاثوا فيها فسادًا، وأذاقوا أهلهم سوء العذاب. ولكن الشاه رفض هذا الطلب، بحجة انشغاله بأمور سياسية هامة، ولضرورة الإشراف بنفسه على بناء القصر. وحينئذ توجهت إليه أمه السلطانة طرخان خاتون معززة مطالب قومها الكبشاق. وكانت السلطانة هي العقل الساهر على سلامة ابنها، وكم من مؤامرة كشفتها وأحبطتها ولولاها لراح ضحيتها السلطان. وكم من عدو أرسلت حرسها في ظلام الليل فقضى عليه غيلة. فكيف إذن يمكن أن يرفض لها ابنها رجاء توجهت به إليه؟

فلما كانت باكورة الربيع التالي، حضر الشاه إلى جرجان، وألف جيشا ضخما من الفرسان، قوامه عشرة فيالق، كل فيلق منها ستة آلاف فارس، خرجت من جرجان في عشرة أيام على التعاقب. ثم تبعتهم جموع كثيفة من خيل الحمل والجر، محملة بالأرز والشعير والزيت وسائر مواد التموين.

والشاه محمد كان رجلا محبًّا للحرب.. لهذا كان حريصًا على تقدم جيوشه بنفسه، على جواده الأشهب الشديد الخيلاء، كأنه يدري أنه أسرج بالذهب، ورصع سرجه بالجواهر الكريمة.

وكانت الطلائع والكشافة تسير في مقدمة الجيوش. أما الشاه فيتقدم القلب، وتتبع خطواته الهجن السريعة التي لا يؤودها السير الحثيث، عليها خيام الشاه وهوادج حريمه وأدوات طعامه ولوازم معاشه الفخم. وعلى مسيرة عشرة أيام من المقدمة والقلب، يسير فيلق المؤخرة المكون من فرسان التركمان، وعلى رأسه أكبر أبناء الشاه، من امرأته التركمانية، جلال الدين خان، والتركمان على خلاف لا يفتر مع الكبشاق، لهذا يكونون فيلقا مستقلا، وينزلون في معسكر مستقل.

وكان طريق الحملة يقع على طول شاطئ بحر خوارزم (بحر الخزر أو بحر أورال)، حتى وصلوا إلى ممر ضيق، فأمر الشاه بالنزول والإقامة، في انتظار عودة الكشافة بأنباء كشفهم وتجسسهم. وجعل يقطع وقت الانتظار في الخروج ببزاته المدربة إلى الصيد والقنص، فشواطئ هذا البحر غنية بطير البحر، لهذا كان يعود من هذه الرحلات بصيد وافر ينكب الطهاة على إعداده لمائدته.

وعاد الكشافة آخر الأمر بأنباء العدو ومواقع قطعاته، فأمر الشاه بالتلبث حتى تصل بقية الفيالق، ويتجمع الجيش كله تحت يده. فلما تم له ذلك، دعا إليه قواده وعقد مجلس الحرب، وشرح لهم خطته في الهجوم على العدو.

ومؤدى هذه الخطة أن ينقسم الجيش إلى ثلاثة أقسام: الشاه على

القلب منها وهو في الوسط، وهو الجزء الذي سيظل في بداية المعركة بعيدا عنها، حتى يسعف الجناح أو الجناحين عند اشتداد القتال، فيحصر العدو بين نارين. وأما الجناح الأيسر فيقوده أمير الكبشاق ترخاي خان. ويقود جلال الدين خان الجناح الأيمن. وكان الشاه يريد أن يرى كيف سيتصرف ابنه الذي خلعه من ولاية العهد، وهل سيؤثر هذا في ولائه أم لا.

وأثناء المجلس، وصلت من جرجان رسالة من السلطانة طرخان خاتون، مكتوبة بحروف كبيرة متناسقة، هذا فحواها:

"إلى الشاه المعظم صاحب الأيد والسلطان، حامي عقيدة الإسلام، ومناط العدل في الأنام، علاء الدين مُحَمَّد، شاه خوارزم، صانه الله وأعز ملكه. السلام عليك ورحمة الله.

أما بعد، فالأئمة في جرجان يرفعون إلى الله خمس مرات في كل يوم، أن ينصرك ويؤيدك بروح من عنده.. ولقد قبض اليوم في سوق جرجان على درويش أرسله خليفة بغداد، لكي يؤلب عليك الدهماء، لأنك تحتضن ضلالات الفرس وتسير على سنة الشيعة، ويزعم أن الله سيرسل على خوارزم جيوشا من البرابرة جزاء وفاقًا. وقد أسلمنا هذا الدرويش إلى كبير الجلادين شاهان بهلوان فعذبه ورجاله بالحديد المحمي، ثم شنق في الساحة الكبرى، بعد أن استؤصل لسانه من بين فكيه!

وقد فعل هذا العقاب فعله في الناس، فاشتد خوفهم. وكل شيء فيما عدا هذا على ما يرام. أعزك الله وأعز ملكك".

طرخان خاتون: الملكة المعظمة لجميع نساء العالمين.

وفي الغداة، تحرك الجيش إلى أن بلغ نهر أرغيز على مرحلتين. وكانت المراعي تحمل أولى هدايا الربيع فتلبث الجيش يومين آخرين، متخفيا بين ثنايا الطريق وصخور الشاطئ، ومتحرزا من إيقاد النيران في الليل، حتى لا تبصرهم عيون عدوهم الذي ينشدونه.

وبعد هذين اليومين، كان النهر قد خلا من ثلوجه، وكشف الكاشفون عن مخاضاته المأمونة، فسبحها الجيش على ظهور الجياد، ثم استأنف الزحف إلى شرقي الشاطئ، وقد تقاربت الفيالق وتضامت، حتى تكون على أهبة القتال وتأمن شر الغيلة والمفاجأة.

وفي واد ضيق بين تلين مرتفعين، وجدوا عددا من الأخبية هجرت على عجل، فثمة ثياب ملقاة، وبسط قديمة مبعثرة على طول الطريق. وتسلق الكشافة التل، وأشاروا إلى الجيش أن يتجه وجهة معينة، ولم يلبث الجيش أن بلغ سهلا مترامیا، تناثرت فوقه الجثث، ويعدو في أرجائه جواد مسرج، ولكنه بغير راكب.

وصاح الجند: "هذا ميدان موقعة.. ولكن أين الغنائم؟ أين القطعان والأسلاب والجياد؟ لقد سلبونا غنائمنا".

وجاس الشاه خلال الميدان، وهو ظاهر العصبية، فالقتلى من عشائر الكبشاق بالآلاف. ومن عجب أنه ليس فيهم حي واحد. فكل جريح قد أجهز عليه تماما قبل أن يغادر العدو مكان الموقعة. ومعظمهم قد جرد من ثيابه!

ولكن فارسا أقبل نحو البادي شاه يركض جواده بأقصى سرعة فوق

الجثث المتناثرة، وقال له: "لقد وجدنا أخيرا يا مولاي جريحا به رمق من الحياة، ويستطيع الكلام".

وأسرع البادي شاه إلى مكان هذا الجريح، ومن ورائه حاشيته. وكان هذا الجريح جالسا عند سفح التل، وقد تلطخ بالدم من رأسه إلى قدمه. وتأوه الرجل وتوجع، وجعل يقص قصته المحزنة، بأنفاس لاهثة، قال:

"إننا عشيرة من الكبشاق كبيرة جدا، ولكنها الآن قد انقرضت بعد هذه المجزرة الحامية. وكان لنا زعيم هو تكنو خان، وقد نجا بنفسه مع ابنه الذي لم يكن أحد أمهر منه في الرمي بالنشاب، وأشاروا علينا أن نتبعهما في الهجرة إلى سهل الكبشاق الكبير في العدوة الأخرى من النهر، هربا من جموع التتار التي يسلطها علينا حنكيز خان ذو اللحية الحمراء. وأخذنا فعلا في الهجرة، ولكن التتار أدركونا، فهجموا علينا كالنسور الجوارح، وعددهم عشرون ألف فارس، على خيل لا تعرف التعب على دقة حجمها. أدركونا عند النهر، وكان لا يزال زاخرا بالثلج فلم نستطع العبور، واستأصلوا شأفتنا، ولم يبق من سلالتنا كلها إلا إنسان واحد، عاش ليخون شعبنا. وذلك هو ابنة الخان الصغرى "قولان" الحسناء، التي اتخذها جنكيز خان زوجة له".

وصاح الكبشاق في وجه الشاه: "قدنا إلى مواضع هؤلاء السفاحين، ونحن نؤدبهم. إنهم غير بعيد من هنا ولا ريب، لأنهم لا يستطيعون السير بسرعة ومعهم الغنم والأسرى. سننتزع الأسلاب من بين أيديهم، هؤلاء الكلاب!".

وهز الشاه رأسه، فاهتزت العمامة المرصعة بالجواهر، واللحية السوداء المستديرة، وقال: "أجل! سوف ندركهم عما قريب".

وأمر قارعي الطبول، فدقوا نوبة التجمع، لكي ينتظم الجنود المتفرقون في ساحة القتال صفوفا، استعدادا للزحف السريع نحو العدو.

مناوشات الطليعة

وزحف الجيش في أعقاب العدو المجهول، وكان زحفه سريعا، وأضل فيه الليل بالنهار، ولم يتوقف خلاله سوى مرتين، ريثما يقدم العلف للجياد. حتى إذا كان الصباح التالي، وقد انتشر الضباب فوق السهول المترامية، فقدت الفيالق العشرة اتصال بعضها ببعض، وأخذ الكشافة يتنادون لتعرف المواقع بصيحات جازعة كعواء الذئاب إذا غضها ناب الجوع، إلى أن هبت ريح رخاء بددت هذا الضباب، فتراءت تحت سفح التل الذي يسير الجيش على منحدره خيام مضروبة، وحولها عربات محملة، وجمال ترعى، وخيل تصهل.

- السلام عليكم.. أنا أيضا مسلم، فاسمحوا لي بأن أخاطب أميركم حفظه الله ورعاه!
- إن بيننا أمراء كثيرين. ولكن فوقهم جميعا أمير الأمراء، سيد العالمين، وسيف الإسلام المسلول، شاه خوارزم السلطان علاء الدين مُحَمَّدا!

فترجل الشيخ عن جواده، وجمع يديه فوق صدره، وانحنى ثم تقدم بين

يدي البادي شاه الذي كان ممتطيا صهوة جواده الأشهب المعهود، وحوله الخانات والبكوات، وقد سكتوا وكأن على رؤوسهم الطير. وقال:

- إن أمير الجيوش المغولية، صاحب السمو "يوشي خان" ابن صاحب الجلالة جنكيز خان، قد أمرني وأنا مترجمه الخاص، أن أحمل تحيته العاطرة إليكم. وهو يسألكم بكل احترام: لماذا يتعقب جيش خوارزم الباسل جيش المغول، حتى أنه قطع الليل كله سائرا بأقصى ما يستطيع؟

وانتظر الرجل أن يتلقى جوابا على هذا السؤال، ولكن الشاه لاذ بالصمت، وهو يرمي محدثه بنظرات نافذة، فاستطرد الرسول:

- وأمرني الأمير يوشي أيضا أن أقول لكم أن والده القائد الذي لا يقهر، جنكيز خان، قد أمر بعقاب تلك القبيلة لتمردها. أما وقد تم تأديبها بحيث لا تعود إلى العصيان أبدا، لأنها أبيدت عن آخرها، فالجيوش المغولية المظفرة سائرة في طريق العودة إلى بلادها الأصلية.. وقد أمرنا مولانا جنكيز خان أن نحافظ على صلات المودة والصداقة مع الجيوش الإسلامية أينما التقينا بها. وقد رأى الأمير يوشي نجله وقائد جيوشه أن يؤكد هذه النية الطيبة باقتسام الأسرى والأسلاب مع جيوش البادي شاه!

وعندئذ قال البادي شاه هذه الكلمة المأثورة:

- ألا أبلغ أميرك أنه إذا كان جنكيز خان قد أمره ألا يقاتلني، فإن ربي، رب الأرباب الجبار المتعال، قد أمرني أن أحاربه ولا أهادنه!

ووقف الرسول مبهوتا، محاولا أن يتفهم مراد الشاه، ولكن الشاه كان قد غمز جواده آفلًا به إلى جيشه الذي أخذ يتأهب للمعركة.

وعاد الشيخ الرسول إلى صحبة المغول كذلك، وسار معهم نحو جيشهم. وكان سيرهم في أول الأمر بطيئا هينا، ولكنهم لم يلبثوا أن انحنوا على معرفات جيادهم وأغذوا السير.

وبدأت المعركة..

فما إن وصل الرسول المسلم إلى معسكر المغول، حتى خرجت منه طوابير راكبة لملاقاة جيش شاه خوارزم، الذي وقف عند قاعدة التل.

وأمر الشاه قواده هذا الأمر: "إن الجيش سينقسم إلى ثلاثة أجزاء: الجناحين والوسط. يلتف الجناحان بمعسكر المغول، حتى لا يفر منه أحد. أما الوسط، الذي سيكون تحت إمرتنا شخصيا، فسيظل بعيدا عن المعركة، لأنه "احتياطي"، وسيكون على قدم الاستعداد للحركة إلى الموضع الذي أرى الحاجة إلى مساعدته فيه ماسة، ولكي يقوم بتوجيه الضربة القاضية التي تحسم الموقعة.

فلما فرغ الشاه من توجيهاته، صعد إلى قمة التل. وقد انتشرت تحت أقدامه البطاح المترامية التي ستصبح بعد قليل ميدان المعركة. وترجل الشاه عن جواده الأشهب، وجلس فوق بساط ثمين فرشوه له هناك. ثم مد الخدم بين يديه سماط مكسوًّا بالحرير المزركش، عليه أطباق ذهبية فيها ما لذ وطاب من الأطعمة الشهية.

وكان الجناح الأيمن تحت إمرة جلال الدين، فركض جواده حتى بلغ

قمة تل، وجعل ينظر إلى الميدان الذي ستدور فيه المعركة، ويدرس تخطيطه العام ومواقعه، وهو يظلل عينيه الصغيرتين بكفه، ثم صاح بأحد أتباعه الفرسان: "إليَّ بقره قونشار!".

وما لبث أن عاد الرسول ومعه فارس نحيل الجسم، طويل القامة، عليه سترة سوداء من الفراء. وتقدم قره قونشار حتى صار قبالة الأمير، فانحنى له، ثم دنا بإذنه منه وأخذ يصغي بانتباه شديد لما يقوله له الأمير. وكان جلال الدين يشرح له خطته في إدارة المعركة، ولم يكن وجه قره قونشار ينم عن شيء وهو يسمع هذه الخطة، اللهم إلا التماع عينيه العسليتين.

قال جلال الدين: "إن الجريح الذي تبقى حيًّا من المذبحة، قال إن عدد المغول لا يتجاوز عشرين ألفًا، فإذا هاجم نصفهم جناحنا الأيمن، كان عددهم عشرة آلاف، وعدة جناحنا نحن ستة آلاف تركماني وخمسة آلاف من جند آخر، من عشيرة الغيتان وهم يتبعون الشاه لسد الجوع وجمع الغنائم، لا عن حمية وشجاعة. لهذا أرى أن أدفع بهم إلى الأمام، ليتلقوا الصدمة الأولى. وسيرحبون هم بهذا التدبير، لأنهم يرونه كفيلا بجعل أيديهم أول أيد تصل إلى الأسلاب. ولكن الجريح وصف المغول أنهم نمور مفترسة. لهذا أرجح أنهم سيفتكون بالغيتان فتكا ذريعا، ويخترقون صفوفهم ليشتبكوا معنا. وعلينا حينئذ أن نلقاهم لقاء حارًّا.. فنضربهم ضربة قوية، في الجوانب بحيث نقذف بهم في المستنقع الملحي الذي تراه هنا، فتغوص قوائم خيلهم في الوحل، ونقضي عليهم القضاء الأخير، ثم نتحول إلى معونة أبي".

ثم التفت جلال الدين إلى رجال من ياورانه، وهتف بهم:

– أسرعوا إلى خانات التركمان، وأذيعوا بينهم أنهم سيكونون في هذا اليوم تحت إمرة قره قونشار، فهد الكراكوم وبطل التركمان المشهور!

وأسرع الياوران يحملون النبأ، الذي سرى بين الصفوف مسرى النار، وكأن له بينهم هزيم فرح واستبشار.. ولكن قره قونشار لم يدع الاحتفاء به يقتطع من وقته الذي أضحى ثمينا إلى أقصى حد، بل أسرع إلى رؤساء الكتائب، وشرح لهم الفكرة العامة للتحركات العسكرية، ثم انتخب ثلاثة آلاف فارس تركماني، وكمن بهم وراء التل، في انتظار وصول المغول متغلبين على الطليعة من جند الغيتان، حتى يضرب ساقتهم على حين غرة.

أما جلال الدين، فأسرع إلى كتائب الغيتان التي سيوجهها في المقدمة، وألقى فيهم الكلمة التالية: "يا جنود الغيتان البواسل! أنتم ليوث غاب، وأسود عرين، ما ناجزكم أحد إلا خاب، وما عاداكم أحد إلا ذل. وها هي خيام معسكر المغول أمامكم، وقد زخرت بما غنموه من قبل، اغتصابا وكرها، فاستردوه منهم، وما وصلت إليه أيديكم فهو حل لكم.. اذهبوا على بركة الله!".

وانطلق جنود الغيتان إلى معسكر المغول، وقد أثارت خيلهم غبارا كثيفا، وتعالت في الجو صيحاتهم الوحشية التي يطلقونها لتشجيع أنفسهم، أو لتخويف عدوهم، الذي لم يعرفوه قبل اليوم ولم يقدروا مبلغ قوته.

أما الشاه محمد، فاستقر على بساطه فوق التل، أمام سماطه الفاخر، ممنيا نفسه بنزهة عسكرية كألعاب الاستعراض في ميدان التدريب. وإلى جواره شيخ الجامع الكبير في جرجان، وله المقام الديني الأول في خوارزم،

وهو الإنسان الوحيد الذي يسمح له بالجلوس إلى جوار البادي شاه على بساطه السامي.. قد صحب الشاه وجيشه ليشملهما ببركة دعواته الصالحات.

وكان البادي شاه يتحدث ويتندر في أمور أبعد ما تكون عما هو فيه، وإن كان يلقي على ميدان المعركة بنظرة عريضة الحين بعد الحين، خيلاء عنه واستكبارا بقوته وجبروته عن الاهتمام بمثل هذا العدو الذي كان يتجمع في فيالق متراصة كالبنيان، يشد بعضه بعضا.

وهجمت فصيلة من فرسان المغول هجوما أماميا، فالتحموا بالكبشاق، وجعلت السيوف اللامعة تعلو الهامات وتهبط بين العواتق، ورأى الشاه أول جندي من الكبشاق يصاب بضربة سيف من مغولي فألقى "ورك" بطة كان بين أصابعة، وصاح بقواد الكبشاق:

– إلى المعمعة يا بكوات! وكان الله في عونكم!

وما إن صدر هذا الأمر الشاهاني، حتى تفرقت طوابير الفرسان الكبشاق وفصائلهم على شكل نصف دائرة، كأنهم يد مبسوطة الأصابع تهم بالإطباق على فريسة باردة! ولكن الفريسة الباردة –المغول– لم يبدوا أي محاولة للإفلات من هذا التطويق الواضح.

وخرج أول فيلق مغولي من معسكرهم، ألف فارس في أتم نظام وتجانس في الحركة، على جياد مدرعة بالفولاذ.. وكان واضحا لكل ذي عينين أن فيلقا على هذا النسق البديع، لابد مخترق صفوف الكبشاق المنتشرة في غير ترابط متين.

وعلت في الجو أصوات المغول الزاحفين يصيحون صيحة الحرب: "هو و و و و وه..". كأنها عواء وحش ضار يسطو تحت جنح الليل. ثم خرجت من معسكرهم عشرة طوابير أخرى، اتجهت اتجاها آخر، تركض خيلها المدرعة، وفي أيديهم سيوفهم المحدبة التي تكاد تقدح بالشرر.

وبدأ الاضطراب على صفوف الكبشاق، لأن مقدمة كتائبهم كانت قد شغلت بالالتفاف حول معسكر المغول، كي ينهبوه ويستولوا على ما يحفل به من أسلاب. ولكن فيلقا ثالثا، من ألف فارس مغولي، خرج من المعسكر لملاقاة هؤلاء المهاجمين.

والتحم الفريقان.. فعلا من أثر ذلك غبار كثير، أخفاهم عن عيون الشاه الذي يترقب المعركة من فوق التل.

وجعل الشاه يعبث بأصابعه في لحيته السوداء، ويلف شعرات منها حول سبابته، آية على الضيق الشديد والاستياء، ثم هتف بمن حوله: "إن هذا لعمري لشيء عجيب! ما رأيت مثل هذا من قبل"!

وفي هذه اللحظة بدأت أربعة فيالق من المغول تزحف في نظام بديع نحو الكتلة الرئيسية من جيش خوارزم، وهو "القلب" الذي يقوده البادي شاه بنفسه، متجهة إلى التل الذي يجلس الشاه على قمته ومن حوله رجال حاشيته وياورانه، وأخذت صيحات المغول تزداد قوة وعنفا، كلما زادت منه قربا، فقال كالمحدث نفسه: ترى من يستطيع صد هذا السيل العرم؟

وتلفت الشاه يتلمس تيمور مالك، ولكنه وجده قد اختفى من مكانه، لأنه لما رأى اشتداد المعركة، امتطى جواده وأسرع للاشتراك في القتال.

وتجمع خيرة فرسان الحرس الشاهاني لمحاولة وقف تيار المغول، ولكن وقوفهم لم يطل. وما لبث فرسان المغول أن اخترقوا صفوف الحرس وأخذوا يصعدون التل، إلى حيث يتربع البادي شاه!

وصاح البادي شاه بصوت مضطرب: "جوادي! أين جوادي؟"

ولكنه لم يتريث ليرى هل استجاب لأمره أحد أم لا، بل ذهب يعدو غير عابئ بوقاره العتيد، حتى بلغ مكان جواده الأشهب، فاعتلى صهوته في سرعة خاطفة، وذهب به يطلب النجاة. وما أسرع ما اقتدى به وجوه قومه وكبار رجال حاشيته.. كل منهم قد ركن إلى الفرار على ظهر جواده الذي طالما اختال به في مواكب النصر، في وقت السلم!

وعلى قمة التل الذي انفض سامره، كان السماط الحافل، والبساط الفاخر، وليس من آكل أو قاعد، خلا الشيخ الأكبر، الذي بسط السعادة التي عبثت بها الريح بعد انصراف الشاه وصحبه، واتجه نحو القبلة، وأخذ يسجد ويطيل السجود، وفي يده أسطوانة من ذهب أخرجها من بين طيات ثيابه، عليها صورة صقر مبسوط الجناحين، تشبه الأسطوانة الأخرى التي وجدها الدرويش في شملة التاجر الجريح محمود غلوش الجرجاني.

ولما اقترب المغول في قمة التل. تقدم أمراء ثلاثة من رؤوسهم، ومعهم المترجم الشيخ الذي كان رسولهم إلى البادي شاه للمهادنة ولكنه ارتد إليهم خائب المسعى. تقدم الأمراء والمترجم، وفي مقدمتهم شاب حديد البصر، أسود العينين، أسود اللحية، قد ضفر شعره وربطه خلف أذنه

اليسرى! وثاني القوم رجل شيخ سمين معقوف اليد اليمنى. وقد اخترق وجهه المغتضن الحديدي الملامح، جرح غائر ذهب بإحدى عينيه. ولكن عينه الأخرى عظيمة الاتساع، سريعة الحركة، لماحة النظرات، لا يفوتها شيء مما يجري حولها! وأما الثالث فرجل طويل، نحيل القامة، عليه دروع تغطي جسده من فرعه إلى قدمه.. أولاد هم: أكبر أبناء جنكيز خان المسمى يوشي، واثنان من أشهر قواده الذين فتحوا بلاد الصين سابوداي الأعور، وتوخوشار الباسل.

ولم يترك الشيخ صلاته عندما اقتربوا منه، فقال المترجم: "إنه من رجال الدين، ولا شأن له بالحروب".

وعند تقدم الشيخ للرجال الثلاثة، وقال:

– إني من رجال جنكيز خان المخلصين منذ ثلاثة سنين.

وأطلعهم على أسطوانة الصقر الذهبي، ثم استطرد: "وقد ثابرت على إرسال التقارير الدقيقة كل شهر إلى عامله على حدود الصين. والآن أرجو أن تأخذوني معكم لآمن شر الشاه، ولأخدمكم أثناء الفتح".

وسكت يوشي قليلا ثم قال: " كلا أيها الشيخ.. إننا في حاجة إلى خدماتك حيث أنت. فلتبق مع الشاه، ولتحافظ على ثقته فيك، ليتسنى لك إمدادنا بالمعلومات الثمينة".

ثم انصرفوا عنه، واستؤنفت المعركة، التي قربت كثيرًا من موضع التل، لأن جنود جلال الدين التفوا حول المغول، والتحموا معهم في قتال عنيف، ليلقوا بهم في المستنقع.

واستمرت المعركة حتى المساء، وفصائل التركمان والغيتان مستميتة في مدافعة المغول وضرب جوانب فيالقهم حتى أوقعوا فيها الاضطراب، وركنت جموعهم إلى التراجع.. وتسنى بذلك للشاه أن يعود إلى سماطه وبساطه فوق قمة التل. وهناك قضى ليلة من أسوأ الليالي، وحراسه الكبشاق من حوله، في ملابس القتال، وفي أيديهم أعنة جيادهم مسرجة، خشية الغيلة.

وكانت فحمة الليل، على مبعدة، تتقد بنيران متناثرة حتى الصباح، فاستنتج الكبشاق أن المغول يستعدون ساهرين لاستئناف القتال في اليوم التالي. وزاد من توجسهم جو الفزع الذي أشاعه أنين الجرحى والغرقى في طول السهل وعرضه، فما أكثر من قتل من الكبشاق في ذلك اللقاء الأول مع التتار.

وحضر جلال الدين لمقابلة والده البادي شاه، وقال له:

– إذا نحن نكصنا على أعقابنا الآن أمام جيش مغولي هذا مقدار حظه من الضآلة والقلة، كان في ذلك ضياع شرفنا وانهيار سمعتنا العسكرية. والمغول ساهرون الليلة على تعزيز مواقعهم في المعسكر، فمن الخير ألا ننتظر، بل نعاجلهم بالهجوم على غرة، وفي صمت، مستترين بالظلام حالا، فنستأصل شأفتهم أجمعين.

ولكن السلطان علاء الدين مُحَمَّد تزمل بعباءته الفاخرة، وأعطى ابنه الأكبر ظهره وهو يقول كالمتأهب للنوم: "غدا نستأنف القتال".

فلما كانت أولى بشائر الصباح، انقسم جيش خوارزم إلى ثلاثة أقسام،

وتقدموا نحو معسكر المغول الذين ظهر أنهم لاذوا بالفرار، تاركين النيران موقدة، حتى يظن العدو أنهم باقون.

فقال الشاه: "إنهم جنود ممتازون ومحاربون بسلاء لم أر لهم نظيرا في الصبر على القتال والثبات فيه". ثم أمر بالعودة إلى بلاد خوارزم.

فقال له ابنه جلال الدين: "ليس هذا جيش المغول. إن هذه إلا طلائع، ولن يلبثوا أن يعودوا بجيش جرار. فالرأي أن نتعقبهم الآن، ونرى ماذا وراءهم، حتى نستعد للقائهم فورًا".

فقال أبوه بازدراء: "هذا هراء صبيان! إن المغول لن يجسروا بعد اليوم على إثارتي أو الهجوم على بلادي".

جنكيز خان والمغول

جيش المغول يتأهب

عند منابع نهر إرتش، وعلى سفح ربوة منعزلة في وسط السهوب الخضراء، ضربت خيمة كبيرة من الحرير الأصفر، كانت يومًا ما خيمة إمبراطور الصين، ولكن جيوش جنكيز خان أغارت على بلاد الصين. فاحتلت الديار، وأخذت الخيمة الحريرية الصفراء من إمبراطورها المهزوم.

ووراء الخيمة الحريرية الكبيرة خباءان من الوبر الأبيض، على طراز أخبية المغول. وفي أحدهما تنزل آخر زوجات الخاقان جنكيز خان، الحسناء قولان التي قتل جنكيز خان جميع آلها وعشيرتها، وأباها وإخوتها، وبنى بها على شرعة الحرب في الزمن القديم، وقد أنجبت منه غلاما اسمه "قول كان" يقاسم أمه خباءها. أما الخباء الآخر، فتقيم فيها الخادمات الصينيات السبع.

وأمام الخيمة الصفراء مذابح للقرابين، عليها نار موقدة على الدوام، إن بالليل وإن بالنهار. وما من أحد يحضر للمثول بين يدي الخاقان الأكبر، إلا مر بين تلك النيران، لأن النار في اعتقادهم تطهر القلوب، وتطرد الأفكار الخبيثة!

ويقوم بالكهانة أمام هذه المذابح إمام ملتهم الأكبر، الشيخ المسن بيكي، يعينه في ذلك كاهنان آخران، وجميعهم في عباءات بيضاء

فضفاضة. وتكاد تنحصر طقوس دينهم في الطواف حول النار المقدسة، وهم يقرعون طبولا كبيرة، ويترنمون بأناشيد التعبد والدعاء، وهم يرمون في النار بزاد جديد من العود والصندل وغيرهما من الخشب المعطر.

وإلى جوار الخيمة الصفراء وتد من الذهب الخالص، قد ربط إليه "سيتر" الجواد الأبيض المقدس، الذي يزعم كهان المغول أن سر انتصارات جنكيز خان التي لا تنقطع يرجع إلى أن إله الحرب "سولد" الذي لا تدركه الأبصار، يمتطي هذا الجواد ويزحف مع جيوش الخاقان ليشد أزرها.

وفي الجانب الآخر من الخيمة الصفراء جواد آخر، اسمه "النعمان" وهو جواد جنكيز خان الأثير عنده، ولونه مائل إلى الصفرة، فيه بقع كبيرة سوداء، وله ذيل أسود، وغرة بيضاء على جبينه.

وإلى جانب وتد الجواد الأبيض المقدس سيتر عود طويل من اليراع، تعلوه راية جنكيز خان، وفي أسفل الربوة، حول مضارب الخاقان، حرس دائم ساهر، حتى لا يدنو مخلوق حي من تلك الخيام الثلاث. فليس مسموحًا باجتياز البوابة المقامة وسط نطاق الحراسة، إلا لبضعة أشخاص قلائل يحملون أسطوانة ذهبية مرسوم عليها رأس نمر.

ووراء هذا النطاق من الحراس الأشداء تنتشر خيام المغول السوداء، وبعض خيام بيضاء من فراء "الياك" يعيش فيها خاناتهم الميسرون. وكل هؤلاء يكونون الحرس الخاقاني الخاص، الذي لا يسمح بالانخراط في صفوفه إلا لأبناء كبار الأشراف من المغول. ومن بين هؤلاء الحراس، يختار جنكيز خان بنفسه قواد الكتائب المختلفة في جيشه الكبير.

وعلى غرار هذه المحلة المنغولية –محلة الخاقان العظيم– تضرب محلات أخرى متباعدة، بينها مراع واسعة تمرح فيها قطعان الخيل.

وقبل أن يغادر جنكيز خان بلاد الشاه نهائيا، أرسل إلى الشاه وفدا خاصا يحمل إليه هدايا ثمينة، في مدينة بخارى. وجعل على رأس ذلك الوفد التاجر الجرجاني الثري محمود غلوش، وقد كلفه في نفس الوقت أن يستطلع له الأحوال في الغرب خوارزم ومبلغ قوة الشاه، وعدد جنده وفرسانه. ولم ينس جنكيز خان أيضا أن يرسل عددا آخر من الجواسيس والعيون ينبثون في سائر أنحاء خوارزم، وكلهم من أهل البلاد.

وكان السلطان علاء الدين مُحَمَّد –كما أسلفنا– قد احتفل بانتصاره على السلطان عثمان زوج ابنته وسقوط سمرقند في يده بأن جعلها مقر ملكه، وبنى فيها مسجدا كبيرا، وشرع في بناء قصر هائل. والسلطان مُحَمَّد شديد الاعتداد بنفسه، ويعتقد أنه نابغة الحروب في زمانه، ولكنه كان يعتبر عدوه الوحيد الذي يستحق أن يحسب له حساب، هو خليفة بغداد، الناصر، لهذا كان الحلم الذي يداعب خيال الشاه، هو فتح بغداد، والمناداة بنفسه خليفة على العالم الإسلامي كله، ثم بعد ذلك يلتفت إلى بسط رقعة الخلافة ونشر لواء الدين الحنيف، بفتح الإمبراطورية الصينية، وجباية خراجها الضخم، والاستيلاء على نفائسها الذائعة الصيت.

لهذا جعل همه في تجنيد جيش ضخم لفتح بغداد مخترقا بلاد العجم. وأرسل مقدمة جيشه فعلا إلى بلاد إيران، ولكن البرد الشديد هناك جعل الجند في حالة إعياء، عظيم، ثم عدا عليهم فرسان الأكواد فأتوا عليهم جميعا!

وقد زعزعت هذه الكارثة ثقة السلطان مُحَمَّد في نفسه، وفي حقه في منصب الخلافة في بغداد، فعدل عن هذا المشروع.

وفي الخريف التالي: من سنة ١٢١٩، وصلت إلى بخارى للمثول بين يدي البادي شاه بعثة صداقة وحسن جوار، من لدن الخاقان جنكيز خان، عاهل المغول. وكان البادي شاه قد عاد إلى الحنق على هؤلاء المغول بعد فشل حملة إيران.

وكان هذا الوفد يضم إلى جانب محمود غلوش الجرجاني، تاجرين آخرين من أغنى التجار المسلمين الذين يسيرون القوافل بين خوارزم وأطراف آسيا، أحدهما من بخارى، والآخر من أوترار، ومثل هؤلاء التجار كانت لهم في ذلك العصر ما للمصارف المالية من المكانة في الزمان الحديث. فكانت أوامرهم بصرف مبالغ طائلة تنفذ بدون مناقشة أو ضمان سوى سمعتهم، سواء كان ذلك في أقصى الشرق أو أقصى الغرب.

وكانت الهدايا التي يحملها الوفد إلى شاه خوارزم قوامها حمولة مائة جمل من الأواني المعدنية الثمينة، وقرون الخرتيت، وأحمال المسك، والمرجان الأصفر والأحمر، والأقمشة النادرة من أوروبا الياك والإبل، والحرير الشفاف المموه بالذهب. وكذلك كتلة من الذهب، في حجم عنق الجمل، حملتها عربة فخمة جميلة الألوان.

واستقبل الشاه مُحَمَّد هذه الهدايا التي حملها الوفد إليه، وهو متربع فوق عرشه الكبير. وإلى جانب العرش، وقف الوزير الأكبر، وحاشية ضخمة من كبار الوجوه والموظفين.

وركع السفراء على ركبهم، وأخذوا وهم في هذا الوضع، يشرحون لمقام البادي شاه موضوع سفارتهم، وتولى أكبرهم سنا، وهو محمود غلوش الجرجاني مهمة الكلام، قال:

- إن السلطان العظيم جنكيز خان قد أرسلنا إلى مقامكم السامي لتوثيق الصداقة والمودة وحسن الجوار بين مملكتيكما العظيمتين. وقد حملنا إليكم تحية عاطرة، وكلفنا أن نفضي إليكم رسالته هذه بحروفها.

وعندئذ، أعطى محمود غلوش إلى السفير الذي عن يمينه، وهو علي خوجه البخاري، لفافة، ففضها ثم تلاها: "إنني لا أجهل مبلغ ارتفاع قدرك وسمو مكانتك واتساع رقعة ملكك. وأعلم أن سلطانك يستظل به الجانب الأكبر من المعمور، لهذا رأيت الخير كل الخير في توثيق الصداقة بيننا أيها الشاه، لأنك عزيز عليَّ عزة أغلى ولد من أولادي".

وهنا صاح الشاه: "ولد؟ أيقول ولد؟".

ووضع يده على مقبض خنجره، ثم انحنى وجعل يتفرس في السفير الذي يتلو الرسالة، ولكن السفير لم يرتبك، بل استأنف التلاوة:

"لتعلم أيضا أيها الشاه أنني قد غزوت إمبراطورية الصين، واستوليت على عاصمتها الشمالية، كما غزوت تلك البلاد التي تقع على حدود بلادك، ولا شك أنك تعلم أكثر مما يعلم غيرك، أن الأرض التي يحتلها جيشي الذي لا يغلب، أرض غنية بمناجم الفضة، وإنها تغل أنواعا من المحصولات لا تدخل تحت حصر. فلا حاجة بي إذن إلى التماس الأسلاب والمغانم خارج حدود بلادي. فإذا راق لك أيها الشاه، فإني أرحب أن نعقد

معاهدة تجارية، يتسنى بمقتضاها أن تروج المتاجر بين بلادينا وتجيء بلا حائل، على أساس حرية التجارة للتجار من البلادين على السواء، ففي ذلك خير لكلينا من أكثر من وجه".

وفرغ السفير من التلاوة، فصمت الوفد، في انتظار جواب عاهل الدولة الإسلامية على رسالة عاهل المغول. ولكن الشاه أشار إلى الوزير إشارة خاصة، فتقبل الوزير رسالة الخاقان من السفير، ثم قال يخاطب محمود غلوش كبير الوفد:

– لقد انتهى الاستقبال السامي! فالبادي شاه مرتبط بموعد استقبال قوم آخرين لعمل عاجل.

وانصرف السفراء الثلاثة، ولحق بهم الوزير الأكبر، الذي دبر أن يهمس في أذن محمود غلوش خلسة بهذه الكلمات الغامضة: "انتظرني عند انتصاف الليل!".

وتحت جنح الليل جاء إلى قصر الضيافة حاجب من لدن الوزير ليستدعي محمود غلوش سرا، وكانت الخيل في انتظاره مسرجه تحت شجرة عتيقة. وميز محمود غلوش بين الفرسان المنتظرين تحت الشجرة وزير الشاه الأكبر: الذي قال له: "ستأتي معي الآن.. اركب الجواد!".

وسارا في شوارع المدينة، حتى وصلا إلى شارع يسده سور عال، فيه باب حديدي، وطرق الوزير طرقة خاصة، ففتح الباب لتوه. ودخل الوزير، وتبعه محمود غلوش سفير جنكيز خان، فاخترقا حديقة فيها بحيرات يسبح فيها البط، وعلى شواطئها خلوات تند منها أصوات الحريم.

وصعدا إلى منصة فوقها كشك بديع الصنع، تضيئه من الداخل شمعدانات فاخرة، فيها شموع ضخمة من شهد النحل. وكان الشاه جالسًا في صدر المكان فوق وسادة من حرير. فلما حياه محمود غلوش، استدناه قائلا: "اقترب مني، فثمة أمور على أعظم جانب من الخطورة والأهمية، أحب أن أتباحث معك فيها. فأنت فيما أعلم من رعاياي، لأنك ولدت في مدينة جرجان، وأنت مسلم مؤمن بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر، ولا تشرك به أحدا. وإني أطالبك الساعة بدليل على صدق الولاء لملكك ودينك، وعلى أنك لم تبع نفسك لأعداء الدولة والملة.

وألقى محمود بنفسه تحت أقدام السلطان، وقال: "يسعدني أن أخدم مولاي بروحي ومالي، فالنفس والنفيس فداء للإسلام وعاهل الإسلام!".

– أجب إذن على ما يوجه إليك من أسئلة، فإذا وجدتك صادقا، أحسنت مكافأتك، وهذا عربون وعدي لك.

وانتزع الشاه لؤلؤة من قلادته، أعطاها لمحمود.. ثم قال: "ولكن حذار! فإنه إذا تحقق عندي كذبك وخيانتك، فإنك لن ترى شمس الغد! أفاهم أنت؟!

– إني على استعداد لخدمتك يا مولاي.. مُرني أطع!

– أريد منك أن تخبرني عن كل شيء يتعلق بشخص جنكيز خان، ودولته، وجيشه، وأن تكون عيني وأذني لدى هذا الشخص، وأن تبعث إلي عن يد رسول أمين، وعلى وجه السرعة، تقارير مستفيضة عن جميع الأعمال هذا الخاقان، وحركات جيشه وسكناته. أتقسم أنك ستفعل

هذا الذي أطلبه منك؟

فوضع محمود غلوش كلتا يديه على لحيته البيضاء، وقال بحرارة:

– الله يا مولاي شهيد على أنني خادمك الأمين.

– ستبقى إذن يوما آخر في هذا البلد، تقص خلاله على كاتبي ومسجل أخباري ميرزا يوسف كل ما تعرفه عن جنكيز خان.

– سأفعل كل ما أمرتني به يا مولاي البادي شاه.

إن جنكيز خان يزعم أنه فتح بلاد الصين، بل واستولى أيضا على عاصمتها الشمالية.. فهل هذا حق، أم هو مجرد إدعاء؟

– أقسم يا مولاي إن هذا صحيح.

– ولكنك يا محمود تعرف مبلغ اتساع رقعة مملكتي، ومبلغ ضخامة جيوشي وقوتها.. فكيف يجرؤ هذا الخاقان –راعي الإبل والخيل– أن ينعتني أنا عاهل المسلمين الأكبر بأنني ولده.. ابنه هو!.. خبرني بصدق، ما مدى قوة هذا الخاقان!

واستشعر محمود نيران الغضب تضطرم في صدر البادي شاه، فخشي أن يجتاحه تيار ذلك الغضب، فوضع كفيه على صدره وقال بتواضع وبذلة: "إن قوته بالقياس إلى قوة مولاي البادي شاه، أشبه شيء بريشة في مهب ريح عاصفة! أو كسواد دخان يسير بالقياس إلى الليل الحالك!".

وصاح الشاه مغتبطًا، كذا؟ صدقت! إن جيوشي لا أول لها ولا آخر، وقوتي لا قاهر لها في المشارق والمغارب. اذهب الآن إلى ميرزا يوسف وأملِ

عليه تاريخ جنكيز خان.. وبعد يومين سيأتيكم جوابي الرسمي على رسالة الخاقان، وفيه أقر معاهدة التجارة الحرة بين البلدين.

جنكيز والمغول

دعا وكيل القصر الشاهاني التاجر محمود غلوش سفير جنكيز خان، إلى أن يتبعه، وقاده في دهاليز متعرجة، إلى أن أوصله إلى حجرة مستديرة، لها قبة عالية، وإلى جوار جدرانها خزائن وصناديق سوداء مصفحة بالحديد. فلما دخلها محمود غلوش تنفس الصعداء، لأنه عرف فيها مكتبة الشاه، لا سجنه كما كان يخشى. ورأى على بساط في الصدر رجلا مسنا، أحنت ظهره الأيام، لحيته في بياض الثلج، وعيناه حمراوان خابيتان، وإلى جواره كاتب شاب، ناعم البشرة كأنه فتاة، وقد انكب على كومة من الورق أمامه. وقدم الوكيل السفير إلى أمين المكتبة ومسجل الحوادث، ثم انصرف.

وقال محمود غلوش: "لقد أمرني البادي شاه أن أخبرك بكل ما أعلمه عن عاهل المغول جنكيز خان.. وأن كل ما سيخرج من فمي، سيصبح لا محالة موضوعا للغط القصور المألوف. فكيف تراني سأتجنب الخطر الذي أراني واقعا بين شقيه: إما أن أغضب الشاه بإغفال شيء مما أعرف، وإما أغضب الخاقان الذي سيعلم ولا محالة بأنباء اجتماعنا الليلي هذا؟ إن جواسيس جنكيز خان في كل مكان، وهم أشخاص لهم مراكزهم التي تبعدهم عن الشبهات!".

– إن البادي شاه يعدك بمكافأة سخية عن كل معلوماتك المفيدة لنا في

هذا الصدد، فإن المعلومات المضللة عن العدو أخطر شيء على سلامة بلاد الإسلام. ونحن لا نشك أنك مؤمن بالله ورسوله، ونربأ بك أن ترضى لبلاد الإسلام أن تطأها خيل الشرك والمشركين. فمن واجبك أن تصدقنا الخبر، وهذا من صالحك أيضا، فإن الشاه كريم جدا!

وسكت محمود لحظة، ثم بدأ يملي على الكاتب، ولم يكن إلا الفتاة بنت زنجية في ثياب الغلمان. قال:

– أول ما ينبغي أن نعني بتوضيحه هو من هم المغول والتتار؟ وأين يعيشون؟ وكم عددهم؟ وأي ضرب من المقاتلين هم؟ والواقع أن المغول والتتار شعوب من أهل الرعي في السهول، وينتجون لقطعائهم المرعى حيث كان الماء، لأن العشب كثير في ديارهم والماء نزر قليل.

– ولكن الذي يعنينا أيها السفير هو جيشهم، فهل هو ذو خطر؟

– لأكونن خائنا لملة محمد ﷺ إذا لم أقل لك إن هؤلاء المغول يحاربون كالأبالسة، ولا يقلون خطرا عن يأجوج ومأجوج!

إنهم محاربون بالفطرة.. وقد ظلوا يحتربون فيما بينهم زهاء مائة عام، بعضهم لبعض عدو، حتى ظهر في الوجود خان قوي، اسمه تيموشين، تميز بالمهارة في القتال، والقسوة على عدوه قسوة لم يسمع بها من قبل، وكرمه العظيم نحو خدامه المخلصين. وكان قد وقع وهو غلام أسيرا، بعد هزيمة أبيه، وعمل حدادا وهو عبد، إلى أن فر يوما بعد أن قتل حارسه بالغل الذي كان يقيده به! حتى إذا استرد بعض بأسه، جعل همه في بسط سلطانه على سائر الخانات، حتى دانت له جميع العشائر والقبائل، ونادوا به

"خاقانا" عندما بلغ سن الخمسين. وكان في ظن الخانات الكبار أنه سيرعى مصالحهم ويحقق مطامعهم، ولكنه ألوى بهم، وسوى بين الجميع في الخضوع لسلطته المطلقة، وأطلق على نفسه اسم جنكيز خان، أي مبعوث السماء، وجعل يغلي في الماء أو الزيت الخانات المتمردين عليه أو الذين يشك في ولائهم التام!

- يا خفي الألطاف، نجنا مما نخاف! أعوذ بالله.. ولكنك تروي أشياء فظيعة، ولا تقول شيئا محدودا عن قوة الجيش المغولي وتسليحه وتنظيمه.

- ولكن الذي حدثتك عنه هو حديث الجيش بعينه.. فمنذ تولي جنكيز خان الملك، تحول جميع التتار من الحرب فيما بينهم، إلى تكوين جيش واحد تحت إمرة جنكيز خان، فقسمهم إلى آلاف ومئات وعشرات، وجعل لكل ألف قائدا، ولكل مائة، ولكل عشرة، وعزل الخانات القدامى الذين كانوا يتولون مناصبهم بحق الوراثة، وجعل الوصول إلى مناصب القيادة بالكفاية الشخصية وحسن الولاء والبلاء وأعلن أن المغول "شعب الله المختار"، وأن لهم جميع خيرات الأرض أينما ثقفوها! وكان اسمهم التتار، فأسماهم المغول، أي "الغزاة" أو "المنتصرين"! وأما سائر الشعوب والقبائل فقد خلقوا لكي يكونوا عبيدا لهم وخدما! وأن رسالته المقدسة هي فتح العالم كله وتنظيفه من البرابرة، لكي يخلو وجه الأرض للمغول.

ولكي يجد للروح العسكرية الفطرية في شعبه متسعا، وجههم إلى فتح

بلاد الصين ذات المجد العريق، والثراء الواسع، فانطلقوا كالإعصار، يخربون كل عامر، ويكتسحون كل مقاومة، فأينما حلوا حل الخراب والدمار، وسالت الدماء أنهارا! وقد غنموا من تلك الغزوة مغانم لا حصر لها عادوا بها إلى خيامهم بعد حرب استمرت ثلاث سنين.

– ألا خبرني بالله عليك، ما شكل هذا الخاقان السفاح؟

– إنه طويل القامة، ومع أنه قد جاوز الستين من عمره، إلا إنه لا يزال قوي البنية، ماهرا في الركوب والصيد والرماية.. وهو بطيء الحركة والمشية، غادر، صبور، كريم متلطف مع خدامه المخلصين. وله جبهة عالية، ولحية ناحلة طويلة، وعينان صفراوان لا ترمشان كعيني القطط! وكل من يعرفه يرهبه، سواء في ذلك الخانات الكبار والرعية. حتى لو أنه أمر عشرة جنود بمهاجمة ألف جندي من جنود الأعداء، لما تمهلوا لحظة كي يفكروا في الأمر، لأنه لا يخالجهم شك أنهم سوف ينتصرون، لأن جنكيز خان لا يقهر!

– ولكن إذا كان الخاقان قد غنم في الصين هذه المغانم التي أغنت جميع جنده وقواده، فلماذا ظهرت طلائعه على حدودنا، وما حاجته إلى مزيد من الغنائم والأسلاب؟

– إنك لا تدري مبلغ طمع الخانات والقواد والجند. إنه طمع لا يعرف الحدود. وقد تظلم الجنود وشكوا إلى الخاقان أن القواد والخانات سلبوهم معظم غنائمهم. وأن سواد الشعب والرعاة لم يبق لهم من كل تلك الأسلاب شيء يذكر. لهذا خطر لجنكيز خان أن يعد حملة

جديدة، تفتح أمام الجند وسواد الشعب من الرعاة أبواب الأمل في غنائم أخرى، وتمنعهم من القتل فيما بينهم كسابق عهدهم.

– وكم يبلغ عدد الجيش المغولي في الوقت الحاضر؟

فتثاءب محمود غلوش، ثم قال:

– إن الخاقان قد وجه إلى هذه الحدود –حدود خوارزم– أحد عشر فيلقا في كل فيلق عشرة آلاف فارس. ومع كل فارس جوادان للحمل أو للتغيير، وأحيانًا أكثر من ذلك.

وهكذا انتهت الجلسة.. فجاء الوكيل واصطحب السفير إلى بيت الضيافة. وبعد يومين رحل الوفد كله إلى بلاد المغول، وقد أفلح في عقد معاهدة التجارة بين البلدين.

وبعد أيام، كانت حوافر ثلاثة جياد تضرب الأرض بين مضارب المغول، إلى أن اعترض طريقها حارسان مسلحان بالحراب، فترجل الفرسان الثلاثة وقال أحدهم للحرس: "أعلموا مولانا الخاقان أن وفده إلى بلاد المسلمين قد عاد.. وأنا محمود غلوش رئيس الوفد".

وبعد لحظة، انجاب ستر الخيمة الحريرية الصفراء، وقصف صوت كالرعد يقول: "دعوهم يقتربوا..".

ودخل الثلاثة خيمة الخاقان، فصاح بهم صوت قاس:

– تكلموا!!

ورفع محمود غلوش وجهه قليلا وقال: "إن الشاه علاء الدين مُحَّد

سلطان خوارزم قد سر كثيرا بهداياك كما سر بما عرضته عليه من الصداقة.. وقد وافق على أن يمنح تجار المغول كافة الامتيازات المطلوبة، ولكنه استشاط غضبا..

- أَلأنني دعوته "ولدي"؟

- لقد صدق حدسك يا مولانا كالعهد بك، وقد بلغ من غضب الشاه، أنني أحسست رأسي غير مستقر على كتفي!

فضاقت حدقتا جنكيز خان، وأشار بإبهامه إشارة أفقية وقال: "وهل ظننت أنك..".

ولم يكمل العبارة إلا بتلك الإشارة من إبهامه، وهي إشارة يعرفها جميع المغول ويرهبونها. إنها حكم جنكيز خان بالإعدام على من يشير بها نحوه!

- ولكنني يا مولاي هدأت ثائرة الشاه، وهو يرسل إليك تحيته الخالصة ومودته.

فقاطعه الخاقان بصوت يفيض استرابة: "ماذا تقول؟ هدأت ثائرته؟ كيف؟".

وجعلت عيناه تضيقان وتتسعان بنظرات الشك! فأخذ محمود غلوش يروي للخاقان جميع ما دار بينه وبين الشاه، والوزير، وجلسته في المكتبة وجميع ما دار فيها.

- أهذا كل شيء؟ لقد أحسنت إذن صنعا أن غررت به وأفهمت هذا المغرور أن جيشنا ليس كفؤًا لجيشه. هذا خير.. لقد أحسنت يا محمود،

وثلاثتكم مدعوون للعشاء معي الليلة.

وانتهت المقابلة!

ليلة نابغية

لم يكن جنكيز خان يحب النوم على ظهور الأفران طلبا للدفء، كما يفعل غيره من الوجوه في أرض المراعي، ولم يكن أيضا يحب الحشايا اللينة.. بل كان يحب أن يشعر بالأرض الصلدة الجامدة الملمس تحت جنبيه إذا نام يفترش فوقها سجادة فوقها طبقة من اللباد السميك. وكان المأثور عنه أنه يكثر من الأحلام أثناء نومه ويلجأ إلى الكهان والمنجمين لتفسير تلك الأحلام. وكان أحيانا يطلب تفسيرها لدى مستشاره الحكيم الصيني "له ليوتشوتساي". ولكنه قلما كان يثق بما يقوله المفسرون. لأنه يعلم أن الملق داء دفين فيهم.

ولكنه في هذه الليلة لم ينم طويلا، بل استيقظ قبل الفجر بكثير، وأخذ يفكر في عشرات الألوف من جنده وخيله، وفي الطريقة المثلى التي يحصل بها من رعاياه على الطعام والنفقة اللازمين لهذا الجيش الجرار، ولزوجاته هو الخمسمائة، وما يتبعهن من الأطفال والخدم والعبيد.

وجعل كذلك يدير في رأسه تلك التقارير التي يرفعها إليه جواسيسه من كبار الرجال في بلاد الأعداء، ويحاول أن يميز بعقله الحصيف الصحيح فيها من الزائف. ثم جعل يفكر في أبنائه الكبار، وأخذ يداخله الشك في ولاء أكبرهم، لطموحه إلى السلطة ثم استطرد من هذا إلى التفكير في أوجاعه، وما بدأ يشعر به من انحطاط القوة من أثر السن.. ثم فكر في

المصير المحتوم لكل حي.. في الموت!

وتمثلت أمام الخاقان في تلك اللحظة صورة زوجته السمينة الوفية "بورت" التي قالت له أمسية رحيله على رأس جيشه نحو الغرب، بأسلوبها الهادئ الذي يفيض حكمة وتعقلا:

– أيها الخاقان المعظم! إنك واصل على رأس جيوشك إلى ما وراء الجبال والقفار، إلى أرض بعيدة وبلاد غريبة، سكانها أعداء، وفتحها محفوف بالمخاطر والأهوال، فهل لم يجل بخاطرك أن سهما من سهام العدو قد يخترق قلبك القوي، أو أن سيفا في يد محارب موتور قد يشق خوذتك الفولاذية! وهب أن شيئا من هذا القبيل وقع (ودار على طرف لسانها لفظ الموت ولكنها لم تنطق به) وهب أن اسمك وذكرك هما اللذان بقيا على الأرض بدلا من شخصك السامي، فمن من بين أبنائها الأربعة هو الذي تعهد له بحكم العالم؟ تخير، وأعلن على الملأ اختيارك، قبل أن يفوت الأوان، حتى لا يكون بين أربعتهم خلاف، ولا تكون فتنة في الأرض!

قبل هذه اللحظة لم يجرؤ إنسان قط على أن يذكر جنكيز خان بتقدمه في السن، وأن أيامه ربما كانت معدودة! ولكن بورت العجوز السمينة المخلصة وجدت الجرأة على هذا القول، بدافع من حبها العظيم وعقلها الراجح.

فهل هو حقا قد شاخ!

كلا! فما وهن العظم منه، ولا اشتعل الرأس شيبا! ولا تزال فيه قوة

خارقة، على قلة ما يأكل، وعلى طول ما جرت من أحداث الدهر في أعوامه التي أربت على الستين.

ومع هذا، فإنه يرى بورت حصيفة فطنة إذ تحدثت إليه في أمر وراثة العرش. فمن يختار من أبنائه الأربعة؟

أما أكثرهم لهفة على موت أبيه، وأشوقهم إلى السلطان وأشدهم به تعلقا، فهو ابنه البكر الصعب المراس يوشي، الذي يبلغ الآن الأربعين من عمره. ولو كان الأمر بيده لانتزع من بين يدي أبيه أعنة الحكم. ولهذا حرص جنكيز خان على إرساله إلى أبعد البعوث والفتوح، وأحاطه بالعيون والأرصاد للتجسس على أعماله وأفكاره.

وأما ابنه الثاني "شاحاتاي" فلعله يتمنى موت أخيه الأكبر أكثر مما يتمنى موت أبيه، لأن أخاه هو نظيره والعقبة التي في طريقه.

ورجح عنده أن يجعل وراثة العرش لابنه الثالث أوغيداي فهو لطيف وديع: يحب المآدب والصيد والسباق، وعلى غراره ابنه الرابع طولي خان. فليس في هذين طموح خطر.

ولهذا أعلن قبل أن يخرج بجيوشه إلى الغرب، نحو خوارزم وتخومها، أن ولي عهده هو ابنه الثالث أوغيداي، ولكن هذا الإعلان أثار حفيظة الولدين الكبيرين، وجعل جنكيز خان دائم التوجس والحذر، حتى لا تناله يد مغتال، أو تمتد إليه من فرجات الخيمة حربة مسمومة وهو نائم، كحاله في هذه اللحظة!

ولهذا كان جنكيز خان يبقي ابنه يوشي بعيدا عنه جدا على الدوام،

ولكن يوشي أقبل على الحرب، وبذل فيها جهده، وحاول أن يكسب محبة جنده وإعجابهم، ولا غرو! فهو شاب قوي، وما أحلى أن يكون المرء ذا قوة وشباب!

ولكن ما هو الموت؟ لقد سمع عن أطباء وسحرة يملكون حجرا يسمونه حجر الفلاسفة، يحولون به الحديد إلى ذهب نضار. أليس في وسعهم إذن أن يركبوا إكسيرا يرد الشيوخ إلى الشباب، ويضفي على الإنسان الخلود؟

إنه سيأمر متى طلع النهار مستشاره الصيني العظيم له ليوتشوتساي أن يرسل الرسل إلى أطراف الإمبراطورية المترامية، لكي يحضر خيرة السحرة والأطباء والحكماء إلى مقر قيادته العليا، ومعهم العقاقير المقوية والتي ترد الشباب وتمنح الخلود. وسيجزي هؤلاء العلماء والسحرة بمنح سخية لم يسمع بمثلها من قبل.

وجعل جنكيز خان يتقلب، وقد جافاه النوم، إلى أن ثقلت أجفانه أخيرا وهوم للنوم، ولكنه أحس ألما هينا في إصبع قدمه الكبير، كأن أحدا يجذبه منه، فلم يفزع فهذه علامة معروفة كثيرا ما نبه بها بورت في صدر شبابهما، عندما كانت لا تزال ممشوقة القد. إنها دعوة الأليف لأليفه إذا هزه إليه الشوق.

ولكن من الذي يقرصه الآن في إصبع قدمه؟ من هي التي تدعوه الآن إلى مخدعها؟ إن بورت قد خلفها وراء، وقد ذهب زمن هذا الغزل بينهما ومد يده يحذره، فلمست أصابعه رداء حريريا، وجسم فتاة مجفلة همست في

أذنه: "إن حبيبتك قولان خاتون تكاد تقضي شوقا إليك.. إنها ساهرة مؤرقة، فتعال ورد لهفتها!".

ولبس حذاءه الأخضر الواسع المبطن بالفراء، ثم دلف إلى مدخل الخيمة، محاذرا أن يوقظ ولديه أوغيداي —ولي عهده— وطولي، اللذين كانا راقدين إلى جواره في خيمته.. ولم يلبث أن ألفى نفسه في العراء تحت السماء ذات النجوم.

في خباء قولان خاتون

وكانت الريح تهب في ظلمة الليل باردة، والقمر مختفيا وراء السحب الكثيفة.. وكانت الفتاة الصينية —خادم قولان خاتون— تسير أمامه، في مهب الريح، فتحمل إليه من أذيالها وثناياها نفح عطر الياسمين الذي تتضح به. وانبثق من سطح الأرض شبحان على حين غرة كانا مستلقيين عليها، وصاح أحدهما: "قف! من هناك!".

فقالت الفتاة الصينية بصوت خافت: "العقاب الأسود!".

فأجاب الحارس على كلمة السر بردها السري: "له المجد!".

وأفسحا الطريق للفتاة والخاقان، الذي جعل يقترب من خباء قولان الأبيض وهو يسائل نفسه: "ترى ماذا وراءها هذه المرة من الألاعيب!" فلما وصلا إلى الخباء، رفعت الفتاة الصينية طرف الخدر، فدخل الخاقان.. فوجد في وسط الخباء نارا موقدة، والدخان يتصاعد منها إلى كوة في سقف الخباء المستدير. وقولان جالسة القرفصاء تحدق في النار. ولاحظ جنكيز خان أن البسط المعهودة قد اختفت، وحل محلها على الأرض فراء ملون،

وفي ركن من الخباء حقائب السفر وقد أعدت وربطت بالحبال، ولا ينقصها إلا أن توضع على ظهور الخيل!

ووقف الخاقان بالباب، وقد ومضت عيناه ببريق المرح.. وكأنما أفاقت المرأة من أحلامها، فمرت على عينيها براحة يدها، ثم نهضت من مكانها وألقت بنفسها على الأرض أمام الخاقان ويداها على قدميه، وهتفت به:

– اغفر لي يا مولاي، يا قادر! يا من لا يعتريك التغير على مر العصور! اغفر لي أنني قطعت عليك نومك، أو أفكارك، أو مجلس حربك! ولكنني لم أعد أستطيع يا مولاي البقاء في هذا المكان. ففي كل ركن أحس بالموت متربصًا لي ولولدي.. سأمضي، سأهرب. ولن آخذ معي شيئا إلا خادما أمينا، وأهيم على وجهي في البرية!

– حسنا.. حسنا.. اهدئي قليلا. وأعطني قبل كل شيء قدحا من الشاي الصيني، وسأجلس إلى جوارك وتقصين عليَّ تفاصيل كل ما يهددك.

فعادت قولان إلى وضعها الأول، فجلست القرفصاء، وإلى جوارها وليدها الصغير مستغرقا في النعاس.. وتنهدت ثم قالت بصوت حزين، ولكنه جميل الجرس:

– إنني مسكينة.. بلا أب، ولا أهل، وليس هناك من يهمه أمري، فلم يبق من عشيرتي إلا أخ واحد لي: ولكنه أيضًا سيموت قريبًا!

– ولكن لماذا يموت أخوك؟

– أليس كل عشيرتنا ماتوا، قتلهم ابنك المفترس يوشي. ويوشي سيأتي إلى

هنا عما قريب، ويكتب عليَّ أن أرى قاتل أبي وعشيرتي كلها. فلماذا أبقى هنا؟ دعني أذهب بعيدا، فقد أعددت كل شيء للرحيل العاجل.

– يوشي خان سوف لا يأتي إلى هنا.. إنه عند ضفاف الأرغيز يتأهب لحملة جديدة. وأنا كما ترين ما زلت على قيد الحياة، وأما أخوك الحاج جميل، فسأجعله قائد المائة السادسة من حرسي الخاص، وسأخبر في الصباح قائد الحرس بهذا التعيين، وبأن المائة السادسة سيناط بها حراستك الخاصة وحراسة خبائك وابنك قول كان. فمن ذا الذي تخشين تحت حمايتي؟

فأطرقت قولان وهمست: "ولكن السهام الخفية تترصدك أنت أيضا".

فهزها بيديه وصاح بها في غضب: "سهام؟ أي سهام؟ سهام من؟".

– يا مولاي! ما من إنسان يستطيع أن ينالك. ولكن كيف تستطيع الحذر من أعداء يعاشرونك، ويخدمونك كل يوم؟ إنني أنا وحدي من أحبك وأتعلق بك، لأن وجودي يتوقف على حمايتك لي.. ألست أقول الصدق؟ قل؟

– تكلمي.. تكلمي.. صارحيني بكل شيء.

– إن العجائز يقولون إن وريث الخان يجب أن يكون أصغر أبنائه. أما الأبن الأكبر فإنه يكبر بسرعة ويتوق إلى انتزاع السلطة من يد أبيه. لهذا يحاول الأب إبعاد أبنائه الكبار. أما الابن الأصغر فإنه يكبر ببطء، ولا يتعجل موت أبيه. فلماذا أغفلت ابنك الأصغر قول كان! لماذا لم تجعله ولي عهدك ووريث عرشك؟

- إنني أريد لك الخير ولابنك، ولهذا لم أختره لوراثة العرش. فإن المغول لن يقبلوا عليهم خاقانا أمه أجنبية. ثقي بي، وابقي إلى جواري، وانتظري حضوري بعد أن أنتهي في الصباح من مجلس الحرب، لأنني مشتاق إليه يا عصفوري الجميل.

وخرج بخطواته الثقيلة.

الخاقان يعد على أصابعه

خرج الخاقان من خباء قولان خاتون، وجعل يدور حول مضارب محلته يفكر فيما قالته له، وبرز له أثناء تجواله شبح فتبادل معه كلمة السر وجوابها.. وعرف جنكيز خان في هذا الحارس الليلي جنديا عنيفا صاحبه في جميع غزواته وحملاته، فقال: "ماذا رأيت، وماذا سمعت؟".

- إن هناك أضواء كثيرة تتراءى على البعد فوق الجبال. انظر يا مولاي! إنهم رعاة السهل، فارين من وجهنا إلى الجبال، لأنهم يخشون بأس جيشنا.

- وماذا يقول الجنود فيما بينهم؟

- إنهم يقولون إنهم كادوا يأتون على جميع ما تحت أيديهم من الأغنام، وإن الخيل قد أتت على العشب كله حتى الجذور ولكنهم يقولون أيضا إن الخاقان أعلم منا بكل شيء، وإنه لا ريب سيقودنا عما قريب إلى حيث نجد شبع البطون، بطون الإنسان وبطون الخيل على السواء.

- وإن هذا لعمري حق! فالخاقان يرى كل شيء، ويفكر في كل شيء،

ويعلم كل شيء. فاذهب الآن إلى قائد الألف شاهان، وقل له إنني آمره أن يركب لتوه ومعه ستمائة فارس. وأخبره أنني سأقلب أصابعي نحو الأرض في انتظاره إلى جوار هذا العشب.

وشرع الحارس يعدو بأقصى ما يستطيع. أما الخاقان فأقعى على قدميه وظل لا يحرك ساكنا، مع انتباهه وتوفز حسه وجوارحه لكل صوت يحدث في أطواء الظلام. وبدأ يعد: واحد، اثنين، ثلاثة، أربعة، خمسة.. وكلما عد مائة بسط إلى الأرض إصبعا حتى إذا وصل في العد المائة الثانية، بدأت أشباح تظهر في الخيام، وتعدو بأقصى سرعتها في السهل، وأصوات تصيح في كل مكان: "الفزع! الفزع!".

وأدرك الخاقان من الجلبة ومقدارها أن مجموعة من الخيل تبلغ الألف قد أخذت طريقها نحوه! ثم لم تلبث الخيل أن اقتربت جدا، حتى وقفت عند سفح الربوة التي يقعي فوقها، وفغمت أنف الخاقان رائحة عرق الخيل ممزوجة بالغبار الذي ثار في المحلة كلها.

وأحضر جنديان من الحرس حصان جنكيز خان الأصهب.. فقبض على المعرفة بيديه وقفز إلى السرج، ثم ركب على مهل إلى حيث تجمع الألف فارس عند سفح التل.

وما أسرع ما كانت الصفوف قد انتظمت وراءه، وشاهان قائد الألف في المقدمة، ومعه أركان حربه.

وصاح جنكيز خان: "شاهان! تعال هنا!".

وأسرع شاهان بجواده حتى صار على بعد ثلاث خطوات من مولاه.

- اذهب يا شاهان إلى هذا الجبل الذي أوى إليه رعاة السهل، فسق إلى جميع الأغنام، ولا تترك لهم شاة واحدة! امض!

وانثنى شاهان إلي فيلقه المصطف وصاح بهم: "اتبعوني!".

وأسرع الفيلق مائة وراء مائة في ضوء القمر، والخاقان في مكانه لا يتحرك، يعد ويبسط أصابعه حتى اختفى آخر جندي عن ناظريه. وكان قد بسط إصبعه العاشر. وحينئذ قال لنفسه:

- هل عني هذا المعتوه الأخرق شاه خوارزم نفسه ببناء جيش كهذا؟ سوف نرى، وسوف يرى، حين تنشب معركة بخارى!

القافلة المفقودة

وأمر جنكيز خان مبعوثيه المسلمين الثلاثة أن يجهزوا قافلة كبيرة، ويسافروا وهم يظهرون نية التجارة، مجتازين بلاد الإمبراطورية الخوارزمية. وأعطاهم جانبا كبيرا من مقتنياته الشخصية التي اقتطعها من غنائم جيشه في بلاد الصين، وأمرهم أن يبيعوا تلك الأشياء الثمينة، ويشتروا بأثمانها الأقمشة الفاخرة التي تصلح للأمراء وأهل الثراء.

وقام محمود غلوش فعلا بإعداد قافلة كبيرة محملة بأحسن البضائع وأغلاها قيمة، ولكنه عزم على عدم العودة إلى بلاد خوارزم هذه المرة، لأنه أوجس من خطر على حياة من يصحبون تلك القافلة. واقتدى به صاحباه في الوفد السابق إلى البادي شاه. فادعوا المرض الشديد عند سفر القافلة، وزعموا أن هذا من أثر سم دسه لهم الشاه وهم في بخارى!

وكانت القافلة مكونة من خمسمائة جمل وأربعمائة وخمسين رجلا في زي التجار ومعاونيهم، وجعل جنكيز خان على رأس هذه القافلة رجلا من حرسه الخاص مقربا إليه، هو "أوسون".

وبلغت القافلة، بعد أن اجتازت جبال "تين شان" بلدا على حدود خوارزم، من بلاد الشاه، هو "أوترار" (وهو بلد كان أهم بلاد آسيا الوسطى حتى دمرها جنكيز خان فيما بعد سنة ١٢١٩ فلم تقم لها بعد ذلك قائمة).

وأبرز "أوسون"، رئيس القافلة لحاكم المدينة تصريحا مختوما بخاتم البادي شاه علاء الدين محمود، يخول به لتجار المغول حرية المرور والبيع والشراء في بلاد إمبراطوريته، مع إعفائهم من الضرائب، وعلى أساس المعاملة بالمثل!

وكانت مدينة "أوترار" مشهورة بأسواقها العامرة التي تلتقي فيها قوافل الهند والصين وبلاد العرب وسائر بلاد آسيا. وكانت هذه القوافل تحمل إليها الفراء، والصوف، والسجاد، والرقيق الأسود والأبيض، والأحذية، والمقصات والأسلحة، والفؤوس، وأدوات المائدة، والفخار، والنحاس وأصناف المنسوجات. ومعظمها مما يصنعه أهل الفن المهرة من سكان بلاد خوارزم "وما وراء النهر".

ولكن هذه القافلة الجديدة كانت شيئا غريبا على أهل "أوترار" وتجارها، فقد بسط رجالها السجاد، وعرضوا فوقه من البضائع الثمينة ما لم يجتمع في قافلة من قبل، حتى احتشد الناس حشودا لرؤية هذه العجائب

النادرة، من فناجين الصين الفاخرة، وتماثيلها الدقيقة، وحريرها الثمين الشفاف، وفراء الثعالب الفضة والسوداء الفاحمة، وغير ذلك من الطرف والتحف وآيات الصناعة.

وتهامس أهل "أوترار" بأن هذه الأشياء الرائعة إنما هي من أسلاب المغول من أهل الصين بعد فتحها، وتساءل قوم منهم لماذا لا يجهز البادي شاه جيشا لغزو الصين بعد فتحها، وتساءل قوم منهم لماذا لا يجهز البادي شاه جيشا لغزو الصين، حتى يتحف رعاياه بأمثال هذه الغنائم البديعة.

وكان حاكم أوترار، هو الخان "أنالشيك خير" ابن أخت السلطانة الوالدة طورخان خاتون، فكتب إلى خالته السلطانة يقول:

"إن هؤلاء القوم الذين جاءوا إلى أوترار في زي التجار ليسوا تجارا، ولكنهم عيون للخاقان جنكيز خان.. فهم يسألون الناس أسئلة لا علاقة لها ألبتة بالتجارة".

فلما وصل إلى السلطانة هذا النذير، حولته إلى ابنها البادي شاه، فأمر بحجز القافلة المغولية في أوترار، ثم اختفى الأربعمائة وخمسون تاجرا القائمون عليها، فلم يعد يظهر لهم أثر، لأن بطون سجن القلعة الرهيب قد ابتلعتهم! صودرت بضائع القافلة وبيعت في أسواق بخارى لحساب الشاه!

ولم يبق حيا مطلق السراح من قواد القافلة إلا رجل واحد. أوصله جنود الشاه إلى الحدود، وهناك أعطوه فرسا في عنقه ناقوس، لكي يعود بأنباء السوء إلى مولاه الخاقان جنكيز خان.

وما إن مضى أسبوعان على هذه الليلة، حتى كانت بعثة أخرى قد وصلت إلى مدينة بخارى، موفدة من قبل جنكيز خان إلى البادي شاه. وكان على رأس الوفد ابن كفري، الذي كان والده يوما ما أميرا في خدمة شاه خوارزم السابق، والد الشاه الحالي، السلطان "طقش"، وكان عضوا الوفد الآخران رجلين من كبار المغول.

وقبل أن يستقبل البادي شاه وفد الخاقان، عقد مجلس حربه، مع قادة الكبشاق، قبيلة أخواله، أشار عليه هؤلاء أن يستقبل وفد المغول استقبالا سيئا، وأن يصغر من أمرهم وأمر موفدهم الخاقان. ولكن على أن يفسح لهم في نفس الوقت لكي يقولوا كل ما لديهم، حتى يعلم البادي شاه حقيقة نوايا جنكيز خان.

ودخل رئيس الوفد، رسول الخاقان، القاعة الكبرى على البادي شاه، عالي الرأس، منتصب القامة، فلم يسجد ولم يقبل الأرض بين يديه، وإن كان قد ترك سلاحه خارج القاعة كما أشار عليه وكيل القصر (وهو بمثابة كبير الأمناء). وأنشأ يقول في وقار وأنفة:

– لقد أتينا لنذكرك أن تجارنا الذين أتوا مدينة أوترار من إمبراطورية جنكيز خان، كانوا مزودين بترخيص عليه خاتمك، يخولهم حرية المرور، والتجارة، مع إعفائهم من الضرئب والمكوس. وفي هذا الترخيص أمر إلى جميع رعاياك أن يحسنوا معاملتهم ويسهلوا مهمتهم ويحافظوا على أرواحهم وأموالهم. ولكنك غدرت بهم غدرا لا يليق. فقتلتهم، وصادرت بضائعهم،

واستصفيت أموالهم. وإذا كان نكث العهود في حد ذاته مستقبحا مستهجنا، فإنه أكثر استقباحا واستهجانا حيث يصدر من عاهل المسلمين!

وانتفض البادي شاه، وصاح بعنف: "أنت قليل الحياء! كيف تجسر على خطابي على هذا النحو! كيف تجرؤ على تحميلي مسئولية عمل قام به أحد عمالي؟".

– أيها الشاه المعظم! ما دام نائبك وممثلك في أوترار قد انتهك حرمة عهدك، فأسلم إلى يدنا هذا العامل الخارج على إرادتك، الخان أنالشيك خير ليقضي فيه خاننا العظيم بما يراه من عقاب! أما إذا أبيت إجابتنا إلى هذا الطلب.. فتأهب للحرب واعلم أنها ستكون حربا حامية الأوار، فرماح المغول أيها الشاه إذا أشرعت لم تخطئ أهدافها، وهي لا تهدف إلا إلى السويداء من قلوب الكماة!

وسكت البادي شاه لحظة، وقد أذهله هذا الوعيد السافر وسكت كذلك كل من في القاعة، لعلمهم أنه يتوقف على هذا الجواب المترقب مصير الحرب والسلام في العالم.

ولكن بعض القواد الكبشاق المتهورين جعلوا يتصايحون بكل حمق:

– الموت للمتهجم! من هذا الذي يجرؤ على توعدنا؟ أيها البادي شاه المعظم، مر بقتل هذا السفير الوقح في هذه اللحظة تخترقه سيوفنا وتمزق أوصاله، إلى الحرب.. إلى الجهاد.. بلادهم وأولادهم حل لنا!

أما الشاه فقد جمد في مكانه، وشحب وجهه فكأن الحياة قد غاضت

دماؤها منه، ثم قال بصوت أجش:

– كلا!.. أنالشيك خير خان من خدامي المخلصين، ولن أسلمه!

وحينئذ تقدم أحد خانات الكبشاق الحاضرين من السفير فقبض على لحيته الطويلة، ثم استل خنجره، وبضربة واحدة منه جزها كلها، ثم ألقاها في وجه صاحبها الذي علت وجهه صفرة الموت لا لأنه جبان، بل لأنه آثر أن يكبح جماح نفسه فلم يزد على أن قال بصوت هادئ جدا، يخفي وراء هدوئه بركانا مضطرما:

– إن أنا إلا رسول، وما على الرسول إلا البلاغ، وإن للرسول لحرمة عند من آمن بالله وكتبه، فهل نسيتم أنكم مسلمون؟

فصاح خانات الكبشاق في وجهه:

– لست رسولًا! ما أنت إلا بعض التراب الذي يمشي عليه خاقان المغول! لماذا تخدم هذا الكافر وأنت مؤمن؟ إنك لخائن!

ثم انقض عليه جميع الخانات الحاضرين، فما تركوا فيه موضعا إلا اخترقته خناجرهم.. أما مرافقاه المغوليان. فقد اكتفوا بضربهما حتى فقدا الصواب! ثم حملوهما فألقوا بهما خارج حدود الإمبراطورية الخوارزمية، ممزقة ثيابهما، منتوفة لحاهما، بغير خيلهما التي جاءا بها، فالتمسا طريقهما على الأقدام إلى مولاهما كيفما استطاعا.

جنكيز خان.. قاهر الشعوب

غضبة جنكيز خان

لم يكن يمر يوم بدون أن يخرج جنكيز خان من خيمته، فيضع راحة يده على عينيه ويحدق من قمة التل الذي تقوم عليه مضاربه نحو الأفق البعيد، منتظرا أوبة بعثته إلى شاه خوارزم.

وكانت القيلولة القائظة ذات يوم، خارج الخيمة قد ألجأت كل متحرك إلى السكون. فالريح ساكنة، والخيل ساكنة، إلا من حركة بذيلها تطرد بها الهوام.. رنت أجراس آتية من بعيد، فرفع جنكيز خان إصبعه القصير في الهواء، والتفت بجانب وجهه المربع يصغي، وقد وضع إصبعه وراء أذنه التي يتدلى منها قرط ثقيل من الذهب.

– هذا رسول.. بل أكثر من واحد.

وهب إلى خارج الخيمة في لهفة وتطلع.. لقد كان ثلاثة من الفرسان يركضون خيلهم بأقصى ما في وسع قوائمها من سرعة نحو المحلة، حتى إذا بلغوا خيامها السوداء، سقط واحد من الجياد إعياء، فألقى عن ظهره راكبه. وأسرع الحراس إلى أعنة الخيل، فساقوها مخترقين بها البوابات، واقتيد الرسولان اللذان وقع ثالثهما على الأرض، إلى حيث كان جنكيز خان. وكان الرسولان مضمدين بالخرق، وعلى وجهيهما آثار خدوش ورضوض،

وكانا متغيري السحنة حتى أن الخاقان التفت إليهما وسألهما: "من أنتما؟".

– يا مولانا الخاقان! لقد كنا يوما ما من كبار قواد الألوف، ولكننا اليوم رجلان خرجا من القبر لتوهما! فقد راق شاه خوارزم أن يتلهى بنا ويأمر بإحراق لحانا، ثم نتف ما تبقى من الحريق!

– وأين ابن كفري.

– تعيش رأسك يا مولانا! لقد تجاسر على توجيه رسالتك بحروفها إلى شاه خوارزم – كما أمرته أن يفعل– فانقض عليه الكلاب العاوون من المحيطين بعرشه فافترسوه ومزقوا أوصاله بنصال خناجرهم!

– ماذا؟ قتلوا رسولي؟ قتلوا ابن كفري؟

وكأنما أصابت جنكيز خان جنة، فجعل يأخذ التراب من الأرض بكفيه، ويهيله على وجهه وثيابه، ويلطم مدرارا. ثم شرع يجري على الطريق وهو على هذه الحال كمن مسه طائف من الجن، وقد تبعه من كانوا معه، وكلما ساروا وراءه إلى مكان تجمع الناس وساروا وراءهم وقد نبهتهم الصرخات، صرخات مبعوث السماء وخاقان الأرض جنكيز خان!

وظل الخاقان يعدو على هذا النحو، حتى بلغ مربط الجياد، فانتزع جوادا منها بغير سرجه، وقبض على معرفته بكلتا يديه وقفز إلى ظهره، وجعل يعدو إلى الجبل الأزرق فقفز إلى ظهور الخيل مستشاره له ليوتشوتساي وابنا الخاقان، وتبعوه ركضا، وهو لا يزال يعول فوق الجواد، كأنه حيوان جريح.

وجعل الخاقان يصعد في الجبل، حتى وقف على صخرة بارزة وسط شجيرات نابتة في الصخر هناك، من شجر الشربين، وقد خلع قلنسوته، وحل حزامه فجعله على رأسه، آية على الحزن الشديد وتفويض الأمر لقضاء السماء، والدموع تلمع في عينيه الخضراوين، ثم أخذ ينظر إلى السماء ويصيح: "أيتها السماء الأبدية! إن عدلك يقتضي أن ينجو المحق ويهلك المبطل الطاغية الشرير. وقد استحق عقابك هذا الشاه، واستحقه رجال دولته ورعاياه".

ونظر إلى جمع المغول الذي تكاثر تحت قدميه في سفح الجبل وقال:

– أتسمعون يا رجالي البسلاء؟ لقد قتل المسلمون رسولي أوسون قائد قافلتي، وقضوا على أربعمائة وخمسين من معاونيه، من خيرة ضباطي وجندي، ثم قتلوا رسولي الثاني، ابن كفري، ثم نتفوا لحى زميليه، وألقوا بهما في العراء شبه عرايا، بعد أن سلبوا جيادهما. فهل هذا يحتمل؟ هل هذا يطاق؟

فصاح المغول من أسفل الجبل:

– سر بنا إليهم يا خاقان! سنحرق مدنهم، ونذبحهم جميعا ذبح الشاة، ونأخذ خيلهم وماشيتهم ومتاعهم جميعا.

وصاح جنكيز يجيبهم، وقد علا صوته عن ذي قبل:

– إن الطقس في بلادهم صيف دائم، والفاكهة عندهم تخرج منها ألوانا لا نعرفها ولا تخطر لنا على بال.. وأراضيهم الخصيبة تنبت المحاصيل ثلاث مرات في كل عام. ولا تضن عليهم يوما بالطعام للناس والأغنام.

فهل من العدل أن تترك أرض غنية إلى هذا الحد، يتمتع بها شعب غادر خئون وضيع إلى هذا الحد؟ لنأخذن أرضهم، ونسوي مدنهم بالأرض وندك منازلهم دكا، ثم نحرث مواضع المدن ونبذر فيها الشعير فنجعلها مراعي لخيلنا، حيث كان يرتع الولدان من أبنائهم.. فهل أنتم مستعدون؟ هل أنتم على أهبة القيام بهذه الرسالة التي تمليها عدالة السماء؟

فصاحوا جميعا بحماسة لا حد لها:

– دلنا عليهم، ونحن نقطع الأرض من تحتهم، ولا نبقي منهم ديارا ولا نافخ نار، ونجعلهم كأن لم يكونوا يوما من أهل هذه الدنيا!

واستدار جنكيز خان وجعل يصعد في الجبل مرة أخرى، يطلب مزيدا من العلو فيه، وتبعه الحراس من بعيد، ليحيطوا بالمكان الذي يختاره للعزلة والمناجاة، كما يفعل إذا حزبه أمر من الأمور، أو كان على وشك الإقدام على خطوة حاسمة. ولكن جنكيز خان لم يقف في صعوده هذه المرة، إلا عندما بلغ القمة، فانثنى إلى حراسه الذين تبعوه وقال:

– قفوا بعيدا، ولا تدعو أحدا يقترب مني، فإني سأتحدث هنا إلى السماء، في أمر النصر المؤزر الذي ستحبونا إياه في بخارى!

درس في الترسل

فلما جن الليل، عاد الخاقان إلى خيمته ودعا كبار قواده إلى مجلس حرب. وكان منهم نفر من رفاق صبا جنكيز خان، صحبوه في جميع غزواته ووقائعه، كستهم السن وقارا كما أكسبتهم الانتصارات غارا، ولكن كان منهم أيضا الشبان الذين لحظت عين جنكيز خان الفاحصة مزاياهم،

والتفتت إلى بسالتهم وذكائهم، فرفعتهم إلى مصاف القيادة.

وكل قائد من هؤلاء الكبار القواد تحت إمرته عشرة آلاف فارس، يقفون دائما على قدم الاستعداد للقتال العاجل. وجلس القواد على البسط، في نصف دائرة ضيقة القطر، أما جنكيز خان فجلس أمامهم على عرشه الذهبي. وكان ظهر هذا العرش قد صوره صناع الصين على هيئة تنين السعادة وحسن الطالع. أما ذراعا العرش فعلى هيئة نمرين كاشرين عن أنيابهما! وكان هذا العرش لأباطرة الصين من قبل، ولكن جنكيز خان غنمه فيما غنم، وهو ينقله معه أينما ذهب في فجاج الأرض.

وعن يمين العرش جلس شقيقا جنكيز خان وابناه أوغيداي ولي عهده وطولي، وعن يساره جلست أحدث زوجات جنكيز خان —التي تصحبه وحدها دون سائر الحريم في هذه الحملة— وهي قولان خاتون. والجواهر تتلألأ على جسدها من جيدها إلى خصرها الدقيق. والخدم الصينيون الذين لا يسمع لهم صوت يذهبون ويجيئون وراء ظهور الحاضرين، يقدمون الطعام في صحاف من ذهب، والنبيذ الأحمر في كؤوس من خالص الإبريز!

ولكن قولان خاتون لم تكن جالسة وحدها عن يسار عرش الخاقان. فقد كان إلى جوارها سفيران من دولتي الصين الجنوبية والتانجو.

وقد أدهش جنكيز خان مدعويه إلى هذه المأدبة بما أبداه من ضروب البذخ في آنية الطعام، وألوانه، وكؤوس الشراب وفخامته. أما الفاكهة الغريبة فكان إحضاره لها من بلادها البعيدة دون أن تفسد معجزة كبرى في نظر القوم. فقد أحضرها سعاة على الخيل لم يتوانوا عن الجري بها في ليل أو نهار.

ومن وراء ستارة رقيقة من الحرير الصيني المزركش، كانت أغاني المطربات والقيان الصينيات تصل إلى أسماع المدعوين، تزجيها أنغام المزمار والصنج.. ثم ظهرت راقصات صينيات أيضا، عرضن على الطاعمين فنون رقصهن.

وقصارى القول أن المأدبة كانت من النجاح بحيث أثلجت صدر الداعي إليها، فظهر عليه الارتياح، وثنى ساقيه تحت فخذيه فوق العرش.. وتلك آية سروره التي لا تجحد!

وفي أثناء الطعام، التفت جنكيز خان في غيرة شديدة إلى مبعوث التانجو، الذي كان جالسا لصق قولان خاتون الشابة الحسناء، وكان يدخل السرور على قلبها بما يرويه لها من الملح والنكات، وكيف أنه ضل طريقه لا في الصحراء، بل في أزقة العاصمة الضيقة عندما ذهب إلى الصين لأول مرة في حياته! وكانت قولان خاتون تضحك مسرورة لهذا الذي يقوله السفير، بلهجة ظريفة حقا. فقال جنكيز خان للسفير، وهو يقضم بأسنانه ذراع حمل مشوي:

– إن ملكك، الإمبراطور برهان، كان قد وعدني أن يكون ذراعي الأيمن في الغزوة القادمة، وها هم المسلمون قد قتلوا رسلي، وهأنذا أتأهب لتأديب شاه خوارزم، فقد آن إذن للإمبراطور برهان أن يأتي على رأس فرسانه، ويتولى قيادة جناحي الأيمن.

فأجاب السفير، وهو مشغول بالحديث مع قولان خاتون الفاتنة: "إذا لم يكن لديك من الجند ما يكفي للقيام بالحملة وحدك.. فكيف تكون الخاقان المعظم؟".

فألقى جنكيز خان بذراع الحمل من يده، وصرخ في وجه سفير التانجو، وعيناه ترسلان لهبا:

– إنك تتكلم باسم إمبراطورك، فكيف تجرؤ على مخاطبتي بهذه اللهجة الوقحة! أتحسب أنه يعجزني أن أقود جيشي الجبار فأسحق دياركم، وأمحو إمبراطوريتكم من الوجود؟ أقسم أنه إذا كتبت لي السلامة من سهام الأعداء في هذه الغزوة، فسأسير إليكم بعد التغلب على شاه خوارزم، لألقي عليكم درسا نافعا في الأدب.. يا له تشوتساي مر أن تلجم الخيل، وأخرجوا هذا الصنم المزوق من تحت سقف خيمتي.

فتلعثم السفير وهو يقول: "هل قلت شيئا لا يليق؟".

ولكن الخدم الصينين لم يتركوه يسترسل في الكلام، بل أخذوه من كتفيه فألقوه خارجا!

والتفت جنكيز خان، والضراوة لا تزال بادية في عينيه، وقال لسفير الصين الجنوبية: "أراك لم تشرب ما فيه الكفاية.. قف!".

ووقف الرجل مبهوتا، فصاح به جنكيز خان: "آمرك أن تشرب الآن ست كؤوس كبيرة من النبيذ على التوالي.. هيا! اشرب!".

وأخذ المسكين يشرب الكؤوس الست الضخمة، وجميع المدعوين يحيونه بأنشودة صاخبة! حتى إذا تجرع الكأس السادسة وقع السفير على ظهره، واستغرق في النوم، وأخذ يغط غطيطا عاليا!

وما إن رأى جنكيز خان هذا المنظر، حتى استولى عليه السرور،

وأشرقت أساريره بالابتسام، وصاح:

– لقد ثمل ضيفي! فهو إذن صديقي حقا لا رياء. لأن المرائي يقاوم السكر، حتى لا تبدي الخمر خافية سريرته! فاحملوا صديقي بعناية إلى خيمته، وقد يعود غدا إلى بلاده.. فمروا جميع الحكام الذين يمر بهم في طريق عودته أن يكرموا وفادته، وليصحبه في الطريق جوق كامل من العزاف والمنشدين، لتسليته في السفر وتهوين مشاق الرحلة عليه!

فلما حمل الخدم السفير النائم السكران إلى خيمته، التفت جنكيز خان إلى مستشاره له ليوتشوتساي وسأله: "هل أعددت ذلك الخطاب الذي أمرت أن يكتب إلى قاتل رسولي، شاه خوارزم؟".

فأجابه المستشار الحكيم في طاعة وأدب: "ومن أنا حتى أستطيع الكتابة بين ملكين يتأهبان لامتشاق الحسام؟ كل معرفتي تنحصر في تنظيم البلاد المفتوحة واستغلال الأراضي المحتلة. ولهذا وكلت كتابة الرسالة إلى كاتبك النابغة إسمعيل خوجه.

– وأين هو؟

وتقدم من العرش كاتب الخاقان وحامل أختامه الشيح المسن إسمعيل خوجه، تحفه المهابة ويحدوه الوقار، فركع على ركبتيه ورفع إلى الخاقان لفافة من الورق، وما كانت هذه الحركة في الواقع إلا عملا من أعمال البروتوكول ليس إلا. فالخاقان المعظم يجهل القراءة والكتابة. وصاح جنكيز خان في وجه إسمعيل خوجه: "اقرأ أنت!".

وبدأ إسمعيل خوجه يقرأ في أناة:

– لقد نصبتني السماء خاقانا على جميع شعوب الأرض. وقد تسنى لي في السنوات السبع الأخيرة أن أقوم بأعمال لم يأتها إنسان من قبلي، حتى غدت إمبراطوريتي ملكا عضوضا لم ينبغ لأحد من قبلي. فالملوك الذين لا ينحنون أمام جبروتي أسحقهم، والبلد الذي تقترب منه خيلي يخر على الأرض راكعا خاضعا مستسلما لقضائي. فلماذا لا تعاملني أنت أيضا بما يليق بي من الاحترام؟ حذار! وإلا صببت عليك جام غضبي.

وهنا قفز جنكيز خان من فوق عرشه، وانتزع الخطاب من يد إسمعيل خوجه الشاحب: "لمن هذه الرسالة؟ أهي إلى عاهل وملك يستحق أن أناقشه مناقشة الأنداد، أم إلى كلب حقير أجرب، لا يستحق إلا الركل؟ أهذا أسلوب الكتابة إلى الأعداء؟ إنك ضالع مع هذا الشاه، لأنك على ملته".

وانبطح إسمعيل خوجه على الأرض تحت أقدام الخاقان، وهو يرتعد رعبا وفرقا، فرفعه الخاقان عن الأرض من منطقته الجلدية، وألقاه برمية واحدة عند مدخل الخيمة! ثم ركله بقدمه خارجها. وعاد ليجلس إلى عرشه وقد طوى ساقه اليمنى تحت فخذه الأيسر، ووضع راحته فوق ركبته، وحدق أمامه لحظة طويلة والكل سكوت –فتلك هيئته حين يستغرق في التفكير– وجعلت عينه تتسع وتضيق، ثم صفق بيده، فدخل الخيمة كاتب آخر في يده صحيفة بيضاء وقلم، وظل راكعا في انتظار إملاء الخاقان عليه. ولكن جنكيز خان ظل ثابت النظرة في اتجاه واحد برهة طويلة، والغضب مرتسم على محياه، ثم التفت إلى الكاتب الراكع وقال له:

- اكتب هذا: "لقد أردتها حربا.. فلتكن إذن حربا!".

وكأنما أفاق جنكيز خان من حلم مزعج كان يجثم على صدره، فانتزع من يده خاتمه الذهبي، وطلاه بحبر أزرق -فقد كان يختم رسائله إلى الملوك بحبر أزرق، أما سائر الوثائق فيختمها بحبر أحمر- وبصم الرسالة ذات السطر الواحد.

وكان الخاتم عبارة عن هذه الكلمات: "الله في سمائه.. وجنكيز خان على الأرض، ظل قوة الله! خاقان التتار.. عاهل جميع شعوب الدنيا!".

وفي صمت الخيمة المطبق، ارتفع على الأثر صوت جنكيز خان مرسلا في قوة ووحشية صيحة الحرب التي تميز بها جيش المغول: "هو و و و و... ه!".

وما إن بلغت صيحة الخاقان آذان خيله المرهفة وراء خيمته، حتى أخذت تصهل، كأنها تقول له: "لبيك مولاي لبيك!".

وإن هي إلا لحظة، حتى رددت جميع خيول المحلة ذلك الصهيل، الذي كأنه جاء رمزا للتضافر العجيب الذي يربط بين المغولي وجواده في حرب الصاعقة التي يشنها على أعدائه.

والتفت جنكيز خان إلى مستشاره الصيني وقال له: "ليذهب بالرسالة إلى حدود خوارزم رسول مسرع يحرسه ثلاثمائه فارس!".

ثم التفت إلى قواده ومدعويه، وقد عاد إلى وجهه إشراقه وقال:

- لنستأنف الطعام والسمر، فإن أمامنا أفراحا كثيرة نحييها في مدن

شاه خوارزم: بخارى، سمرقند، جرجان.. وإني لأرى الساعة ديارهم وقد أصبحت حقولا ترعى فيها خيلنا، ورجالهم يفرون من جنودنا رعبا، وقد قتلهم الخوف قبل أن يقتلهم حد السيف! وأنهارهم سوف تجري نبيذا، لأن الدم سيحيل بياض مائها إلى حمرة النبيذ! وسماءهم الصافية ستعرف الغيوم، لأن دخان الحرائق سينعقد في أديمها سحابا أبيض وأسود!

ومصمص شفتيه متلذذا، ثم رفع إصبعه القصير إلى صيوان أذنه وأصغى لصهيل خيل المحلة تأتي من بعيد متجاوبة عميقة الجرس، وانطلق يضحك.

وأخذت نشوة الحرب القواد الطاعمين، فرفعوا كؤوسهم الذهبية وشربوا نخب عاهلهم الذي لا يقهر، خليفة مجد الإسكندر، خاقان الأرض شرقيها وغربيها، جنكيز خان، ظل قوة الله بين الناس!

عدة الحرب

ما كاد يتلقى الشاه علاء الدين مُحَمَّد رسالة جنكيز خان بكلماتها الخمس، حتى أصدر أمره الشاهاني بتحصين عاصمته الجديدة سمرقند على وجه السرعة، فتحاط بالأسوار العالية العريضة برغم اتساع رقعتها، وحتى أن طول هذه الأسوار كان قمينا أن يتجاوز نحوا من خمسة وخمسين ميلا. وأرسل الشاه كذلك جباة الخراج والمكوس المختلفة إلى سائر بقاع مملكته، لكي يجبوا ضرائب عدة أعوام مقبلة مقدما، ليستعين بها على مواجهة نفقات الحرب الباهظة، مع أن ضرائب هذه السنة نفسها لم تجمع من الناس إلا بكل صعوبة. وأمر الشاه كذلك أن تكون فرق من الرماة

بالسهام، وأن تجتمع هذه الفرق على صهوات الجياد، ومعها زاد يكفيها عدة أيام. ثم أمر بإحراق جميع القرى الواقعة على الضفة اليمنى لنهر سيحون إلى حدود بلاد "الغيتان"، حتى لا تقع غنيمة باردة في البلاد بلا مأوى وبلا مورد للمعيشة، الأمر الذي دفع الكثيرين منهم إلى عبور بلاد "الغيتان" لينضموا إلى جيوش المغول نكاية في الشاه الذي أحرق بلادهم وأخرجهم من ديارهم.

واستقر الشاه في سمرقند، في انتظار ما يبدو من المغول، وفي انتظار تجمع جيوشه الآتية من أطراف مملكته المترامية. وكان يقطع الوقت في الاختلاف إلى المساجد وسماع الخطب الرنانة من رجال دولته المتعلقين ويؤم الصلاة الجامعة في الميدان الكبير أمام قصره. ثم دعا إلى مجلس عام لوجوه المملكة وكبار قوادها وبكواتها وأحبارها وأهل الرأي فيها.

وتربع الشاه في هذا الاجتماع على عرشه الفخم، والتف حوله أعضاء المجلس وهم جلوس على البسط والحشايا. ووقف إمامه الخاص، فقرأ الفاتحة، ثم قال بصوت وئيد: "لحظ الله بعنايته بلادنا العزيزة، ووقاها من كل سوء، وأبقاها وأبقى لها مجد سلطانها المعظم".

وصاح الجميع في أعقاب ذلك: "آمين.. آمين.. يا رب العالمين!".

وتنحنح الشاه ثم قال: "إني أنتظر من كل منكم أن يخلص لي المشورة.. وليدل كل واحد منكم بما يراه أعون لنا على قهر عدونا".

فهتف جميع الحاضرين بصوت واحد: " كلنا فداء مولانا.. نموت ويحيا السلطان!".

فقال الإمام: "إني أرى أن يذهب مولانا بجيشه الجرار إلى شاطئ نهر سيحون، فيلقى المغول هناك وهم لم يستردوا بعد قواهم من رحلتهم الطويلة عبر البيداء".

وأطرق الشاه، فأدرك الجميع أنه غير راض عن هذا الرأي، فبدأوا كالثعالب يتحسسون مهب الريح. فقال خان من خانات الكبشاق: "الرأي عندي أن ندع المغول يتوغلون داخل حدودنا، حيث نعرف الدروب والمسالك وهم يجهلونها، فيسهل علينا بذلك القضاء عليهم".

وقال آخر من الكبشاق: "وأنا أظن أنه يحسن أن نترك سمرقند وبخارى تدافعان عن حوزتيهما فإن لهما أسوارا عالية منيعة، ونتفرغ نحن لتركيز دفاعنا على شواطئ نهر جيجون، لأنه حائل طبيعي يقف في وجه تقدم المغول إلى بلاد إيران".

وقال ثالث: "إني أعرف هؤلاء الرعاة الرحل.. إنهم قد يغيرون كالشياطين على بلد من البلدان، ولكنهم لا يقيمون فيه طويلا، لأنه لا صبر لهم على الإقامة الطويلة أولا، ولأنهم أيضا لا يحتملون حرارة الجو هنا، ولا تحتملها خيولهم، لأنها تعودت طقس بلادهم القارس البرد. فلا ضرورة لمدافعتهم، ما داموا سيرحلون بعد أن يشبعوا سلبا ونهبا، والديار غنية، وحياة السواد من الناس لا تستحق أن نشغل بحمايتها عن حماية حياة شاهنا المعظم.. فلنذهب مع مولانا إلى ما وراء جبال الهند وكوش، إلى مدينة غزنة، فنجمع فيها جيشا آخر. وفي الإمكان أن نتراجع من هناك إلى الهند نفسها إذا لزم الأمر، حتى تنكشف هذه الغمة ويجلو هؤلاء البرابرة

عن ديارنا، والرأي للسلطان.. عاش السلطان!".

وكان تيمور مالك قائد الحرس حاضرا بطبيعة الحال، وهو رجل جندي، فيه صراحة الجندي المطبوع وأريحيته ونجدته، فصاح بغضب: "هذا رأي خطير! هذه خطبة جبان رعديد لا جندي صنديد. وما استحق شرف خدمة الشاه والتعلق به من كان جبانا".

ولكن الشاه لم يعلق بشيء، بل التفت إلى ابنه الأكبر جلال الدين الذي عزله عن ولاية العهد، وسأله: "وأنت.. ما رأيك؟".

– أنا يا مولاي سيفك الذي به تضرب وعليَّ أن أطيع ما تأمر به، وليس لي أن أشير.

– وأنت يا تيمور مالك.. ما تقول؟

– الغلبة بنت الهجوم والهزيمة توأم الانخذال.. وقد يغلب رجل ضعيف نمرا مفترسا إذا طرح الخوف من قلبه وهجم عليه هجمة صدق! أما الانسحاب وراء الجبال، والاعتصام بالآكام فكلام ليس أسخف منه في هذا المقام إنك تعرف رأيي منذ زمن يا مولاي فما أكثر ما ألححت عليك أن ترسلني إلى مكان تجمع المغول، وحينئذ كنا نرى هل ما زالت قوسي ترسل السهام إلى أهدافها نصا، أم أن ذراعي وهنت، وعلا الصدأ حسامي!

فقال البادي شاه: "ليكن كما تقول يا تيمور مالك.. عما قريب يذوب الثلج عن مسالك الجبال، ويأخذ المغول في عبورها إلى وادي "فرغانة". وفي وسعك حينئذ أن تجرب في رؤوسهم وعواتقهم سيفك

الصقيل.. فقد عينتك منذ الساعة قائدا لحامية مدينة خوشند".

وتبادل الحاضرون النظرات.. فتلك وظيفة دون مقام تيمور مالك. فهو أكبر قواده.. وهذه المدينة على الحدود القاصية نائية عن مركز الحركات الحربية. فهذا التعيين بمثابة نفي للقائد الصريح الشجاع، وتحقير له بتوليته هذه الحامية الصغيرة القليلة الأهمية، في وقت حرب طاحنة تهدد مستقبل البلاد.

وبعد لحظة صمت هنيهة، استطرد الشاه يحدث أعضاء المجلس:

– تيمور مالك يقول إن الهجوم خير وسائل الدفاع، ولكنه نسي أن الحرب حيلة وأن الشجاعة العمياء ليست كل شيء في الحروب. ولست أرضى أن أترك مدينة واحدة من مدن بلادي بغير دفاع. ولكنني أيضا أعلم أن هؤلاء الرعاة لا صبر لهم على حرارة بلادنا الشديدة. وفي اعتقادي أن خير وسيلة للدفاع عن بلادنا في هذه الظروف هي الاعتصام بحصوننا وقلاعنا المنيعة.

وقاطعه خان من الخانات، مسعفا إياه بجرعة ملق: "ولا تنس أيضا ذراعك القوية يا مولانا السلطان. فهم سندنا الأول ومجننا الأعظم عند اشتداد البلاد".

وعقب السلطان على هذا الإطراء الصارخ بقوله:

– طبعا طبعا.. فأي جيش يكون تحت إمرتي في معمعان القتال قمين أن يكون صخرة عاتية في طريق تقدم هؤلاء المغول البرابرة. وقد بلغني من رجال أثق بمعلوماتهم وحسن اطلاعهم وولائهم لي أن جيش جنكيز خان لا

يعدو في قوته سحابة من الدخان السابح في الهواء، بالقياس إلى قوة جيوشنا الجرارة الباسلة. فلماذا نخافهم؟ سأترك في سمرقند مائة وعشرة آلاف جندي للدفاع عنها، فضلا عن أهلها، وسأترك معهم عشرين فيلا مدربة على القتال، كفيلة بإلقاء الرعب في قلوب الأعداء. أما بخارى ففيها خمسون ألف مقاتل من الأشداء.. وسأترك في كل مدينة من المدن الأخرى بين عشرين وثلاثين ألف مقاتل، على حسب أهميتها وماذا يبقى من جيوش جنكيز خان القليلة العدد بعد أن ترتطم بكل هذه العقبات الكأداء في طريقها؟ إنه لا ينتظر مددا وهو بعيد عن قواعده، فتذوب قواته في بلادنا وتتلاشى، كما يذوب الثلج تحت حرارة الشمس..

فصاح الجميع في نفس واحد: "إن شاء الله.. إن شاء الله!".

– في حين أجند أنا جيوشا جديدة من المؤمنين الشجعان في بلاد إيران. وبهذه القوات الجديدة التي لم ينهكها القتال أسحق بقايا جيوش المغول التي قد تكون وصلت إلى هناك.

وصاح الجميع مرة أخرى في نفس واحد: "إن شاء الله! إن شاء الله! هذه حكمة سديدة وخطة رشيدة، تلك التي ألهمها الله سلطاننا وقائدنا المظفر!".

وفي هذه اللحظة دخل رئيس ديوان البريد، وفي يده رسالة رفعها إلى السلطان، وهي تقرير من درويش استطاع التسرب إلى صفوف المغول، وفيها يبلغ السلطان أن العشرين ألفا من فرسان الكبشاق الذين أرسلهم لحرب المغول في أوترار قد فروا من خدمته وانضموا إلى المغول.

وثبتت جميع الأنظار على السلطان، كأنما ليستنبطوا من سحنته حقيقة ما في التقرير الذي يتلوه في سره، وهل يحمل بشرى أو نذير من نذر السوء.

وقطب الشاه حاجبيه، وهمس في صوت حبيس: "كفى! كفى! لم يعد لدينا من الوقت ما نضيعه في الكلام".

ووقف الجميع، وتليت الفاتحة، وانفض مجلس الحرب، وانصرف البادي شاه إلى غرف قصره الداخلية.

رزيق يحمل السلاح

– هو! يا رزيق! اخرج يا رزيق. اخرج أيها الثعلب الماكر. لا تتماوت.. اخرج! فقد جعلك البادي شاه قائدا عاما على جيوشه المظفرة!

وكان الذي يصيح بهذه الكلمات، يدق باب رزيق الفلاح المسكين بمقبض سوطه، وهو على صهوة جواده لم يترجل.. وفتح باب الكوخ، وخرج منه شاب في الثلاثين يفرك عينيه بيديه.

– هيه؟ هل كنت نائما والشمس رأد الضحى. يا لك من كسول! هل أفرطت في شرب البوظة أمس؟

– بوظة؟ أين هي البوظة؟ وهل لدينا وقت لشربها إن نحن وجدناها؟ لقد كنت ساهرا طول الليل في انتظار وصول المياه إلى أرضنا كي نرويها. وشجر بيني وبين أربعة من الجيران شجار، لأنهم أرادوا اغتصاب مناوبتنا في الري.. ولكن ماذا يريد مني الحاكم هذه المرة؟

– ليس الحاكم هو الذي يطلبك هذه المرة، وإنما هو شاهنشاه خوارزم.. إنه يدعوك إلى أن تصحب جوادك وخوذتك وسيفك ورمحك وتأتي مع جلالته لتحاربا جيش يأجوج ومأجوج الذي يهدد البلاد.

وهرش رزيق ظهره بأصابعه الأربعة في بلادة، ثم قال:

– إنك تضحك مني يا شيخ البلد! وهل أنا جندي؟ إن السلاح الوحيد الذي أحسن استعماله هو الفأس والمحراث والمدراة!

– وما شأني بهذا، إنما أنا العبد المأمور.. قالوا لي هات رزيقا يحمل سيفا ويمتطي جوادا، فأبلغتك. وما على الرسول إلا البلاغ. فهذا مرسوم الشاهنشاه، إن على جميع الفلاحين البالغين الذكور أن يأتوا للحرب مع السلطان توا. من كان لديه منهم حصان فعلى حصانه، ومن كان منهم بلا حصان فراجلا أو على جمله. فاحرص على أن تكون غدا لدى رئيس حيك، فإنه سيقود الجميع، وهم أمثالك، وجهلهم بالحرب والقتال مثل جهلك ليخوض بكم الوغى. ومن تخلف قتل.. مفهوم؟

– ولكن خبرني أولا –يا بك– ما هو الموضوع الذي سنحارب من أجله، ومن هم هؤلاء اليأجوج والمأجوج؟

– وهل هذا شأنك يا لكع؟

وانطلق الرجل على حصانه، ليدق باب فلاحين آخرين. وأقبلت أم رزيق العجوز تسأل وحيدها عن جلية الأمر، فقال لها ما حدثه به شيخ البلد. كما أقبل جيرانه الفلاحون –وهم الذين تشاجر معهم من أجل الماء الليلة– يسألونه بلهفة عما وراء زيارة شيخ البلد، فقال لهم: "إنها الحرب!".

فصاحوا جميعا، في نفس واحد:

– الحرب؟ ولكن من ذا الذي يحارب الشاهنشاه، وهو أقوى سلطان في العالم، وظله يستظل به كافة أهل الدنيا؟ وماذا يريدون منا؟ نحن لسنا جنودا. نحن فلاحون نزرع الأرض ونخدمها، لكي يأخذ البكوات المحصول لأنفسهم. فهل يريدون أخذنا نحن أيضا؟ لماذا لا يتركوننا لخدمة الأرض؟

ولكن غبارا ثار في الجو من بعيد، إيذانا بقدوم فارس آخر، فقال رزيق:

– شر وهذا يريده! ترى ماذا وراء هذا الراكب أيضا؟

ودنا الغبار، ثم تكشف عن كوكبة من الفرسان، وراءها عربة كبيرة من ذوات العجلات الأربع، ووقفوا أمام كوخ رزيق. وقفز من العربة جماعة من جباة الضرائب في أيديهم عصى بيضاء. وأسرع الفلاحون إلى المثول بين أيديهم.. فقال رئيس القادمين:

– أمرنا أمين بيت المال أن نجبي ضرائب العام القادم مقدما، للإنفاق على الحرب ضد المغول الذين يريدون اجتياح أراضينا واغتصاب قطعاننا ومواشينا وغلاتنا، وجميع مقتنياتنا، ليتركونا عراة.

وأجابت أم رزيق من فرجة باب الكوخ: "ولكنا عراة فعلا يا صاحب السعادة!".

– ولكن إذا جاء العدو فقدنا حياتنا أيضا. فأيهما أفضل؟ ونحن في حاجة إلى الماء لعطاء الجنود، وإلى القمح لطعامهم، وإلى الشعير لطعام

الخيل. هيا ادفعوا الآن. ولنبدأ بهذا البيت. لمن هذا البيت؟

– بيتي أنا.. أنا رزيق، وليس لدي شيء أدفعه. كل ما تبقى لي بعد دفع ضرائب هذه السنة هو دجاجة واحدة، لا تبيض.

وأمر الجابي أربعة من الفرسان الأشداء أن يقتحموا بيت رزيق لتفتيشه، فخرجوا منه بعد حين صفر اليدين، إلا أحدهم، فقد كان يحمل الدجاجة العجوز التي لم تعد تبيض! فاستشاط الجابي غضبا وصاح في وجه رزيق: "إني أمهلك يومين، فإذا لم تدفع في خلالهما ضربتك في كل يوم خمسين جلدة حتى تدفع ضريبة العام القابل، أو زكيبة من الدقيق على الأقل، تحت الحساب. وإذا تلكأت طويلا، أكثر من أسبوع، أخذنا منك الأرض، وأعطيناها لإنسان غيرك لا يضن بالمساعدة عند الشدة على الجيش الباسل!

فانحنى رزيق حتى عفر جبينه بالتراب، وقال في توسل: "سأفعل كل ما يأمر به الشاه.. سأذهب إلى الحرب على ظهر مهري، وسأحارب جيش يأجوج ومأجوج، وسأعمل في إصلاح الطرق وحفر الخنادق وبناء الاستحكامات. ولكن لا تضربوني أمام أبنائي، ولا تطلبوا مني قمحا وأنا ليس عندي قمح! إن لدي والدة، وأربعة أطفال، فبماذا أعولهم؟ بعض الرحمة يا صاحب السعادة".

– لا جدوى من هذا.. لقد أنذرتك، وأنت البصير بأمرك.

وانطلق الحاسب وأعوانه بعيدا، إلى فلاح آخر.

فلما بعدوا، وانصرف الجيران.. خرج إلى المسجد للصلاة، فلقي

الناس، وسمع حديثهم، فبدأ يصدق حديث الحرب مع يأجوج ومأجوج، وأن الأمر ليس مجرد حيلة من حيل الحكومة للحصول على المال.

وكان الحديث الدائر على الألسنة أن هؤلاء الغزاة قوم كالجن، أتوا من المشرق، وأنه لا طائل من وراء قتالهم ومدافعتهم، فهم لا يغلبون! وأن الوسيلة الوحيدة للنجاة من شرهم، هي الاعتصام بالقلاع، أو الهرب إلى الجبال!

وكانت ليلة رزيق نابغية، فقد قضى معظم ساعاتها في التباحث مع زوجته فيما ينبغي عليها أن تفعل أثناء غيابه، سواء في جمع المحصول، لكي تستعينهم في جمع محصولها.

وسألته امرأته أخيرا: "ولكن ماذا تصنع إذا جاء يأجوج ومأجوج إلى قريتنا؟ هل نهرب بجلدنا؟ وكيف سنلتقي بعد ذلك؟".

ولكن رزيقا طمأنها، وقال لها إن الله لن يخذل المؤمنين به، وإن العدو لا يعقل أن يصل إلى بخارى، قلب الدولة النابض، قبل أن يكون الشاه قد لاقاهم بجيش كبير فردهم على أعقابهم، وعندئذ يعود إليهم رزيق على جواد مطعم مسرج بالذهب، مما غنمه في الحرب، ويعيشون عيشة البكوات حتى الممات!

وفي الصباح امتطى رزيق وذهب بلا زاد ولا مال. لأنه لا زاد له ولا مال، ولأن الجيش يعيش على ما يصادفه أينما حل.

هذه الحرب

يحيا السلطان

وتوجه رزيق إلى بيت شيخ الحي، فوجده قد توجه بجنده إلى البك.. فذهب إلى البك، فاستقبله وكيل دائرته أسوأ استقبال. وأخبره أن البك قد سار بالكتائب جميعا، وأن المتأخرين عليهم أن يسعوا في اللحاق به على الطريق الكبير المؤدي إلى مدينة بخارى. فتوكل رزيق على الله، وسار على الطريق الكبير، ممتطيا مهره، وفي يده حربة عجيبة من الصناعة المنزلية.

وعلى طول الطريق، كان رزيق يصادف جماعات من الفلاحين، بعضهم على ظهور الخيل، وبعضهم يوثق عربات تجرها الخيول أو الثيران بأدوات منزلية وأطفال ونساء، والكل يعولون لفراق الديار والأوطان.

ولم تكن وجهة هذه الجماعات واحدة؛ فمنهم الذاهب إلى بخارى للاحتماء بأسوارها، ومنهم الذاهب إليها لمعونة السلطان في الحرب كما يذهب هو، ومنهم أيضا من ييممون شطر الجبال، هربا من الخطر، وهربا من إلحاح جباة الضرائب.

وكان الوقت إبان الربيع، والقمح لم ينضج بعد في الحقول، والحرارة قد أصبحت شديدة برغم بعد أوان الصيف.. فكانت الرحلة حافلة بالمشاق. حتى إذا كان مساء اليوم الأول من أيام سفره، تعرف رزيق وهو على مرمى النظر من منائر بخارى بدرويش أسود العينين يمشي على قدميه، وقد حمل

"خرج" متاعه على حمار له أسمر، وإلى جانبه غلام في الثالثة عشرة من عمره. وكان الدرويش ينشد في مسيره أناشيد دينية وحماسية، يدعو فيها لجنود الإسلام بالنصر على أهل الشرك. فكان الجنود الذين يمرون به يتحفونه بما يحملون من أنواع الزاد، فيتقبل منهم داعيا لهم في رقة محببة.

حتى إذا انتشرت الظلمة على الكون، ظهرت نيران كثيرة متناثرة على طول الطريق وحول أسوار المدينة، أضاءها الجند الذين أدركهم الليل قبل أن يدركوا مدينة بخارى.

وتبع رزيق صديقه الجديد الدرويش و"ظله" إلى بناء منخفض السقف تنبعث منه صيحات متلاحقة، هي صيحات الدراويش المألوفة في ذكر الله: "هو. هو. ياهو. يا حق. لا إله إلا هو".

فقد كان هذا البناء "خانقاه" مما يقام لإيواء الدراويش حول المدن الكبيرة في ذلك العصر. ولم يجد رزيق له محلا في هذا البيت المكتظ بالناس بين دراويش وضيوف من العسكر، فبات ليلته إلى جوار الجدار من الخارج، وقد اجتهد ألا ينام، خوفا على مهره الذي ربطه إلى جوار رأسه، فقد سمع ذلك المساء أن أحقر حصان، ولو كان أعرج، أصبحت له قيمة كبرى، لأن جميع الناس في بخارى قد ركبهم الذعر، وهم يتسابقون إلى الهرب نحو جبال الهند أو جبال إيران.. لهذا راجت سرقة الخيل في هذه المنطقة. ولكن ما جاء السحر حتى ثقل رأس رزيق فنام نوما عميقا حتى إنه لم يسمع صوت قادم قطع حبل المهر ومضى به.

ولكن رزيق كان فيلسوفا مطبوعا.. فقال لصاحبه الدرويش بعد أن

تبين سرقة المهر: "لنا عزاء –يا حاج عبد الرحيم– في زوال هم المهر عن كاهلنا، وإننا سنتمكن من رؤية معالم بخارى الجميلة بغير شاغل يشغلنا من طعام المهر أو حراسته!

ووضع رزيق حربته العجيبة على كتفه، وسار إلى جوار الدرويش وحماره و"ظله"، فكان رابعهم في هذا الصف الصغير، ويمموا شطر مدينة بخارى، فدخلوا ضحى ذلك البلد الذي كان معروفا في هذا العهد باسم "خزانة العلوم والمعارف الشريفة".

دخل أربعتهم من الداخلين، وما أكثر الداخلين في هذا اليوم، حتى كأنهم نهر لا ينقطع تياره. وكانت أسوار المدينة التي تقادم عليها العهد، قد أهمل شأنها، حتى نمت الأعشاب حولها وبين صدوعها. بل إن أجزاء منها كثيرة أدركها البلى وتهاوت للسقوط. وعلى هذه الأسوار إحدى عشرة بوابة، تسلكها القوافل التي تحمل إليها البضائع من جميع أنحاء العالم الإسلامي.

وكانت البوابة الأولى في ذلك النهار في حكم المقفلة، لا بمصاريعها الكبيرة، بل باجتماع الخلق فيها فإنهم لا يتحركون. فلا موضع هناك لقدم. حتى إذا اجتازوا تلك العقبة بكل مشقة، وجدوا حوانيت التجار، والبضائع مكدسة فيها بغير تصنيف.

ولفت أنظارهم على الخصوص هذا العدد العديد من "طلبة العلم"، الذين يدرسون علوم الفقه والشريعة واللغة العربية على الخصوص.

وعند الميدان الكبير الذي يشرف عليه المسجد الجامع، وجدوا

حلقات كثيرة، وعلموا أن الشاه في المسجد يؤدي الصلاة، فوقفوا مع الواقفين، حتى خرج الشاه، وخطب الناس يحضهم على الثبات في القتال، ثم ختم خطبته بأن أعلن أنه ماض على رأس جيشه إلى سمرقند للقاء العدو الذي دنت آخرته!

وتعالى هتاف الناس: "يحيا السلطان محمد! يعيش شاه خوارزم! يحيا قاهر الترك وناصر دين الحق!".

طريق الشاه

وخرج الشاه من بخارى، لكنه لم يتجه إلى سمرقند، بل وجه عنان جواده إلى الجنوب، وقد غطى وجهه بقناع من الحرير، وتبعه رجال حاشيته. وكان السلاحون إذا أبصروا موكبه انبطحوا على الأرض وقبلوها!

وبذل الوزير جهده بإقناع جلال الدين أن البادي شاه قد ضل الطريق، فكان يجيبه جلال الدين: "وما شأني أنا إذا كان قد ضل الطريق؟ إني أتبع أبي وكفى، أينما كانت وجهته".

فيضطر الوزير للسكوت، حتى كانت لحظة التفت فيها الشاه إلى ضيعة جميلة، وقرر النزول في القصر الصيفي الملحق بها.. فأطيع للتو، ونزل الركب بالحديقة، فنصبت الخيام للأجناد، واستقر الشاه وكبار رجاله في القصر الذي كان صاحبه غائبا عنه، وبعد أن رفع العشاء. صرف الشاه مرافقيه، وبقي في الشرفة مع ولده جلال وحده، فهمس له:

– إني أشعر بالقلق بنتابني.. فقد جاءني رسل من ثلاث جهات في وقت واحد. وكلهم يجمعون على أن الحوادث السود أخذت تتجمع كقطع

الليل آخذا بعضها برقاب بعض.

– إنها الحرب يا أبي.

– الرسول الأول أبلغني نبأ استيلاء النمر الأحمر جنكيز خان على مدينة أوترار، وأسره أنالشيك خير خان وانتقامه منه انتقاما مروعا، وأما الرسول الثاني فأتى من الجنوب، وهو يقول إن فيلقا مغوليا قد ظهر هناك أيضا.. إذا اجتازوا الجبال قطعوا علينا خط الرجعة والانسحاب إلى الهند.. وثمة رسول ثالث، يقول إن كتائب المغول قد ظهرت في البيداء المفضية إلى الغرب!

– إذا كان الأمر كذلك، فمعنى هذا أن جنكيز خان سيكون بعد أيام على أبواب بخارى.. ويجب أن نستعد لمواجهة هذا الأمر!

– ومن يدري؟ فقد يكون هذا الوحش ذو اللحية الحمراء على أبوابها الآن فعلا، وجنوده الشياطين يتنسمون الهواء لكي يتشمموا ريحنا.. يجب أن نهرب بأقصى سرعة ممكنة.

وجعل الشاه يتلفت حوله كمن يخشى أن تكون أشجار البستان جنودا من المغول متنكرين! وجلال الدين صامت مطرق لا يتكلم. فقال له أبوه في ضيق: "لماذا لا تتكلم؟ إني آمرك أن تتكلم".

– إذن سأتكلم، ولتغفر لي جرأتي أو تعاقبني عليها بالقتل.. إنني أرى أن جنودنا يجب ألا يختفوا وراء الأسوار، بل يخرجوا لملاقاة جند جنكيز خان. ولهذا أتمنى لو عدنا أدراجنا، ووقفنا في الطريق الذي نعلم أن جنكيز خان سيسلكه وهاجمناه من كل جهة، وبكل وسيلة، فما جدوى مائة ألف

جندي بجيادهم خلف أسوار مدينة مثل سمرقند؟ إنهم عبء على المدينة وعلى مؤونتها، وخيلهم يعتريها الهزال من طول الركود.

– أتجسر يا غلام على انتقاد خطط أبيك؟ لقد عرفت منذ زمن طويل أنك لست على غراري ولا تعجب بأفكاري.

– ليس هذا صحيحا يا أبتاه. فلن أتخلى عنك وقت الشدة. ولن أخذلك عند اليأس. وكل ما هناك أنني لا أرى فائدة لجيش كبير ما دام لا ينزل الميدان.. إن الأسوار جعلت لحماية النساء، لا لحماية الكماة الذين تلتمس عندهم الحماية. فأتوسل إليك أن نعود إلى سمرقند ونقاتل عنها.

– بل نذهب إلى إيران، أو إلى الهند. إنك مقدام، ولكن ليست لك صفات القيادة. سنذهب إلى إيران ونجند هناك جيشا جديدا.

– والجند الذي تحت يدك الآن يا مولاي؟ إن عصفورا واحدا في اليد خير من عشرة على الشجر! هيا بنا إلى سمرقند يا أبي!

– كلا! كلا! إني آمرك أن تذهب إلى بلخ لتجمع لي هناك جيشا جديدا.

تيمور مالك

ترك جنكيز خان ولديه أوغيداي وشاغاتاي أمام أوترار على رأس جانب من جيشه، وقال لهما: "حاصرا أوترار حتى تسقط ويقع أنالشيك خير خان حاكما أسيرا في أيديكما، فأرسلاه إليَّ حيا يرسف في الأغلال. وسأوقع بهذا السفاح عقابا لم يسبق له مثيل".

وأمر ابنه الأكبر يوشي أن يتجه إلى شند والفيكنت. ثم فرق بقية جيوشه في سائر الاتجاهات، بحيث تضحى دولة خوارزم محصورة بالطوابير المهاجمة من كل ناحية.

وممن أرسلهم على رأس فيالق "ألق"، أحد قواده المقربين، وأمره أن يأخذ بناكت، وكانت حاميتها من الكبشاق، فحاصرها ثلاثا، حتى ذهب كبارها إليه وطلبوا إليه العفو، فأمرهم أن يصفوا جميع رجال المدينة خارجها، وقسمهم ثلاثة أقسام: الجند، والصناع، والعامة. ثم أمر الجند بإلقاء سلاحهم، فهجم عليهم المغول بالسيوف والخناجر والحراب والسهام، حتى ذبحوهم عن بكرة أبيهم! وأما سائر الأهلين فقسمهم ألوفا ومئات، وجعلهم فرقا لتغطية الهجوم، ولهدم أسوار المدن المحصورة، تحت وابل مقذوفات أهلها المدافعين عنها، لكي يوفر على جنده المغول صدمات الهجوم الأولى!

وسار ألق بعد ذلك إلى خوشند، وهي المدينة التي عين تيمور مالك قائدا لحاميتها الصغيرة. فأفلح في بناء قلعة في جزيرة تتوسط النهر، وجمع فيها مقدارا هائلا من المؤن والأسلحة..

ودفع ألق بالأسرى المسلمين ليهجموا على أسوار المدينة، فلما رآهم أهلها تأذوا إصابة مواطنيهم، فسلموا المدينة حقنا لدمائهم، فعبر تيمور مالك النهر مع ألف فارس من المقاتلين الشجعان، واعتصموا في قلعة الجزيرة التي بناها.

وهاجم المغول القلعة بالمنجنيقات، ولكن قذائفها قصرت عن بلوغها

كما قصرت دون ذلك سهام القوم. فسخر ألق الأسرى المسلمين وأهل المدينة نفسها في جلب الحجارة من الجبل، لكي يقيموا معبرا من اليابسة إلى الجزيرة!

وفكر تيمور مالك في حيلة لملاقاة هذا، فأعد اثني عشر حراقة تسير في النهر، وحصنها ضد الحريق بأن جعل سقوفها من اللباد الندي، وكذلك جوانبها. وجعل فيها فتحات لتطلق منها السهام. وكانت هذه الحراقات تجوب النهر بعد الفجر، فتلقي الدمار في صفوف المغول على الشاطئ. أما سهام المغول المشتعلة فكانت تنغرس في اللباد الندي فلا تصيب الحراقات بسوء.

وتحت جنح الليل، كان يخرج مع بعض جنده فيقومون بعمل " كبسات" ليلية على معسكرت المغول النيام.

واستعان المغول بمهندسين صينيين صنعوا لهم مجانيق أقوى، بحيث صارت قذائفها خطرا جديا على قلعة الجزيرة، فخرج تيمور مالك في الحراقات، ومعه أمتعته ورجاله وأقلع مصعدا في النهر، يرشق القوم على الشاطئين بسهام قاتلة، وركبوا متون الخيل إلى عرض الصحراء. ولكن هجمات الأعداء، والجوع والإعياء والظمأ أتت عليهم جميعا، ما عدا تيمور مالك، الذي بلغ البئر التي ينزل حولها آل قره قونشار، وكان قد أعياه القتال، ولم يبق معه إلا سهم واحد، فحصل هناك على جواد آخر وذهب يلتمس الشاه ليكون إلى جانبه في هذه المحنة.

ولكن أوترار لم تستسلم بسهولة. ففيما كانت بناياها تحترق تحت قذائف المجانيق المشتعلة، كان حاكمها أنالشيك خير خان يقاوم في استماتة معتصما مع نفر من رجاله بالقلعة. حتى ثار غضب جنكيز خان وأمر جيشه بالاستعداد لهجوم أخير.

واجتمع القواد وأبناء الخاقان في خيمته، وتلقى كل منهم الأمر منه بالجهة التي يقصد إليها والمدن التي يستولي عليها إن صلحا وإن عنوة. ولكن أحدا منهم لم يجرؤ على سؤال الخاقان عن الجهة التي سيقصدها هو شخصيا، بعلمه الأبيض ذي الذيول التسعة. فقد اكتفى جنكيز خان بأن قال في غموض وتكتم: "وفي أثناء غيبتي، ستكون القيادة العليا على سائر الجيوش للقائد المحنك "برغوي نوبون". أما مقدمة الجيوش فقد جعلت قيادتها لاثنين من القواد: "جيبي نوبون" و"سابوادي".

وسكت الخاقان قليلا، ثم قال: "وأوصيكم بالمحصول الذي لم يزل في الأرض، لأن أوان نضجه التام لم يحن بعد.. فهذا طعامنا وطعام جيادنا، إننا تخيرنا هذا الوقت للهجوم، وفي حسابنا أن يكون المحصول في الحقول لم يجمعه العدو بعد، ويكون أوان العناية به مع ذلك قد انتهى!".

وسكت مرة أخرى، وجعل يتفرس في رجاله الصامتين حوله، ثم استطرد:

– إننا سنلتقي بالشاه علاء الدين محمود في السهل الواقع بين بخارى وسمرقند. وسنواجه هناك من ثلاث جهات مختلفة، فيكون جيشه كالفريسة

حاصرتها كلاب الصيد من كل جانب، فلم تعد لها فرصة للنجاة. حتى إذا قضينا على الجنس الرئيسي، بعد أن استولت جيوشنا الزاحفة من الجهات الأخرى على الأطراف، صرت عاهلا للعالم الشرقي والدولة الإسلامية الخوارزمية غير منازع.

وركب جنكيز خان جواده وتحرك بجيشه مخترقا طريق القوافل عبر الصحراء، وكان الطقس فيها متطرفا.. فالشمس محرقة في النهار، والبرد قارس في الليل. وكانت فترات الوقوف قصيرة، لإطعام الخيل ليس غير، ومكان النوم بجانب الخيل، وعنان كل جواد في يد صاحبه تحوطا من المفاجأة واستعدادا لها.

وظن الجنود بادئ الأمر أنهم يخترقون صحراء جرجان، نحو عاصمة الدولة القديمة. ولكنهم أدركوا بعد مسيرة يومين أنهم يتجهون جنوبا، نحو بخارى وسمرقند.

وكان جنكيز خان يسير وسط جيشه على حصان ذلول، والجيش كله يتحرك في خطى سريعة متلاحقة، يسميها المغول "خطوة الذئب".

وبلغ من تشدده في الإسراع أنه حرم نصب الخيام للمبيت، رغم شدة البرد، فالجنود —وهو نفسه مثلهم تماما— يبيتون في العراء على لباد مطوي. ولكنه كان يمتاز عن سائر الجنود، بأن أربعة من الحراس المخلصين كانوا يسهرون حوله بالتناوب.

حصار بخارى

جعل أصحابنا الأربعة: الحاج عبد الرحيم، والغلام طوقان، والحمار الأسمر، والفلاح رزيق –الذي صار جنديا بلا حصان– جعلوا يطوفون شوارع بخارى باحثين عن مكان يبيتون فيه. ولكنهم كانوا يتلقون دائما إجابة واحدة لا تتغير عن سؤالهم: "لا موضع عندنا لأحد.. البيت قد اكتظ بالناس".

وأخيرا اهتدى أصحابنا إلى زقاق ضيق ينتهي بأكواخ من الطين حقيرة منخفضة، تقع تحت أسوار المدينة، فاقترح رزيق أن يتسلقوا هذه الأكواخ، ويبيتوا فوق سطحها تحت أكداس الحطب والقش التي هناك. وتسلق هو أولا، ثم مد يده فأعان صاحبيه على الصعود، وتركوا الحمار مربوطا تحت البيت. وباتوا ليلتهم الأولى في بخارى على هذه الحال.. حتى إذا آذن الليل بالانتهاء، هب أصحابنا، وتسلقوا من سطح الكوخ قمة سور المدينة، وأخذوا يتطلعون إلى السهل المنبسط حولها.. فماذا رأوا؟

أمام البوابة الشرقية، في نهاية السهل، وعلى قمة ربوة عالية شيئا ما، رأوا خيمة صفراء من الحرير، وحولها خيول عليها أصحابها أو بغير أصحابها، تموج حول تلك الخيمة في كثرة النمل. ثم انتظمت صفوف الخيالة، وتفرقت طوابير، وخرجت هذه الطوابير فأحاط كل منها بجانب من أسوار بخارى.

وكان كثير من أهلها قد تسلقوا الأسوار، ليروا هذا العدو الداهم الذي دهمهم في عقر دارهم. فرأوا منظرا عجبا: رأوا خيلا قصيرة القوائم،

سهلة الحركة في عصبية، حتى لتشبه في عددها الخنازير البرية إذا طاردتها كلاب الصيد. ورأوا فيالق من العدو تسوق أمامها جموعا من آلاف الفلاحين البخاريين، في أيديهم المعاول.

وسأل رزيق في بلاهة: "من هؤلاء القوم الغريبو الأطوار؟".

فأجابه جندي متعجرف: "يا له من سؤال ينبئ عن الغباء! هؤلاء جند يأجوج ومأجوج! وهذه الخيمة الصفراء، هي خيمة خاقانهم جنكيز خان ذي اللحية الحمراء، قاتله الله!".

وفي هذه اللحظة ظهر على السور ضابط شديد الهيبة، عرفه رزيق فانطلق نحوه، ثم انحنى أمامه وهتف به في صوت يتمزج فيه الفرح بالاحترام: "سيدي البك "أيناتش خان"، ألا تعرفني؟ أنا فلاحك رزيق، الذي أعمل في أرضك".

– ولماذا أنت واقف هنا ولست مع رجال كتيبتك؟

– إنني هنا بأمر البادي شاه فقد أرسل إلي كي آتي إلى بخارى لمعونته في حرب يأجوج ومأجوج. ولكن لصا سرق مني مهري في الطريق وأنا نائم، فاضطررت إلى إتمام الرحلة على قدمي، ولست أعرف من قائد كتيبتي ولا أين أهتدي إليه. وكلما سألت أحدا لم يعن بهدايتي. فإذا كان رجل مثلي مستعد للحرب في سبيل الشاه لا يجد من يأبه له، فمن إذن سيحارب هؤلاء اليأجوج والمأجوج؟

– إني لسعيد أن أسمعك تقول مثل هذا القول الذي يدل على شجاعة وروح عالية. وإني أرى لك يدين قويتين وكتفين عريضتين.

وأحسبك ستكون جنديا ممتازا في هذه الحرب. سآخذك معي وأضمك إلي فيلقي الخاص، فاتبعني.

وهكذا افترق رزيق عن الدرويش وغلامه طوقان.

وتبع رزيق أينانش خان بك حتى وصلا إلى رحبة فيها خيل كثيرة ونيران موقدة في العراء فوقها أوان كبيرة بداخلها أرز يغلي في الماء، وقد انتشرت في الجو رائحة شحم الضأن. فلما رأى رزيق هذا المنظر، ونفذت إلى أنفه هذه الرائحة، رقص قلبه، وقال في نفسه: "مرحى! مرحى! إنهم هنا يطعمون الجنود، ولا يكتفون بمجرد سوقهم للقتال".

وصاح أينانش خان ينادي رجلا طويلا تركماني السحنة، فيه نشاط وذكاء:

– يا شاويش "أوراز"! هذا جندي شجاع اسمه رزيق.. ضعه تحت إمرتك، لقد كان فلاحا مجتهدا، وأحسبه سيكون فارسا مبرزا أيضا.

وانصرف أينانش خان، تاركا رزيق في عهدة هذا الشاويش الذي كان يقود عشرة فرسان، كانوا كلهم جلوسا حول النار، يطهون أرزهم، وبدأ أحدهم بتحية رزيق تحية فذة إذ قال له: "لقد أحسنت يا أخانا بإحضار هذه الحربة المنزلية معك.. فإننا هنا لا نجد وقودا لنار الطهو".

ومد يده إلى حربة رزيق، فكسرها على ركبته ودسها في النار! وبهت رزيق البطئ التفكير، الخجول بطبيعة نشأته الريفية.. وهم أن يقول شيئا، لولا أن قطع عليه الشاويش حبل أفكاره بأن قال له، وقد أقبل عليه وفي يده عنان حصان ضخم تبدو عليه الشراسة: "سيكون هذا حصانك..

وهو حصان له قائمتان خلفيتان في غاية الخطورة! فاحذر أن تقترب منه من خلف، وإلا رفصك رفصة تلقي به في القبر! اركبه من جهة رأسه، وبسرعة، قبل أن يستدير إليك. وهو إذا ألفك أسلس لك قيادته، لولا خصلة فيه لا يمكن تغييرها: إنه يكره البقاء في الصف، فإذا خطر له أن يعدو، عدا بك حيثما راق له. وفي أثناء المعارك، لا يؤمن أن يعدو بك إلى معسكر التتار فجأة!".

وتقدم رزيق من رأس الجواد، ولكن الجواد ما رآه حتى حمر عينيه، وكشر عن أنيابه، وحرك فخذيه! فتمتم رزيق المسكين: "لا حول ولا قوة إلا بالله!".

وأعطاه الشاويش أيضا سيفا ضخما عتيقا، وزوجا عتيقا من أحذية الركوب، ثم دعاه ليأكل من الأرز الذي تم نضجه.. وعندئذ شعر رزيق أنه أصبح جنديا حقا، مثل هؤلاء الذين تطعمهم الدولة ولا تسألهم أن يدفعوا الخراج مرتين كل سنة!

فلما كان المساء، قدم الجنود للخيل علقها من الشعير، ثم قال الشاويش:

– والآن أيها الرفاق قد بدأ الجد.. فإلى ظهور الخيل!

ووجد رزيق بعض المشقة في ركوب حصانه، ولكنه أفلح في ركوبه آخر الأمر، ثم سار مع رفاقه بقيادة الشاويش فاخترقوا شوارع بخارى الضيقة، وقال الفارس الذي يسير إلى جوار رزيق: "إننا سنخرج في "كبسة" فكم منا يا رزيق سوف يعودون منها؟".

وبلغ الفرسان بوابة المدينة، والتقوا هناك بأينانش خان قائد الفيلق الذي أصدر إليهم التعليمات الآتية مع غيرهم من الكتائب:

- إننا سنهجم على الخيمة الصفراء، التي فيها خاقان المغول نفسه. والأوامر أن تقتلوا كل من تصادفونه. لا تأخذوا أسرى. لا تبقوا على طفل أو شيخ، حتى توقعوا الرعب في معسكر العدو.

وخرج الجميع من فرجة ضيقة في البوابة. ولم ير رزيق للوهلة الأولى شيئًا سوى من يسبقونه من الخيالة، لأن الوقت كان ليلا. ولكن حصانه جعل يتقدم من أمامه، حتى صار في الصف الأول، وقد ذهبت جهود رزيق في إيقافه عن العدو هباء.

وبدأ الخمسة آلاف فارس ينقضون على معسكر المغول. وهم يصرخون صرخات وحشية ليلقوا الذعر في قلوب العدو، وكل من صادفوه في طريقهم جندلوه خبط عشواء. فأسرع المغول إلى خيولهم، وانتشروا في كل مكان، واستمر القتال.

وكان رزيق يصيح مع الصائحين، ويعمل سيفه الثقيل على خير وجه يستطيعه. فجرح رجلا، وجندل آخر، وتمنى من كل قلبه أن يصل إلى الخيمة الصفراء. ولكن سائر رفاقه لم يكونوا في هذا الاتجاه، بل لا يدري لماذا توجهوا وجهة أخرى، وتبع حصانه بقية المجموعة في سرعة جنونية. فجعل رزيق يبتهل إلى الله ألا يسقط به الجواد في حفرة فيدق عنقه.

وأخيرا أبطأت الجياد، وأمر أينانش خان بالراحة قليلا، ثم يستأنفون السير غربا، للانضمام لجيوش الشاه. ولكن أصواتا كالرعد القاصف ملأت

الجو، وسمعت سنابك خيل لا عدد لها تملأ الفضاء.. إنهم التتار، يطاردون الفيلق الذي أراد الخروج من المدينة ليلحق بالسلطان.

واقتحم التتار المعسكر الذي أنهك جنوده طول المسير، فلم يقووا على المقاومة إلا قليلا، ثم ركنوا إلى الفرار، فأعمل فيهم المغول السيوف والحراب، حتى قضوا على كثرتهم العظمى.

استسلام بخارى

ولما رأى أهل بخارى هؤلاء الجنود الخمسة آلاف قد آثروا عار الفرار على شرف الجهاد والاستشهاد، قرروا أن يفاوضوا جنكيز خان في الصلح. ولما تم الإجماع على الاستسلام، خرج كبار السن ووجوه القوم وأئمة العلماء، في ثياب المخمل والحرير التي يلبسونها في مواكب الأعياد، وحملوا مفاتيح الأبواب الأحد عشر على خوان من الفضة المنقوشة، وتوجهوا إلى الخيمة الحريرية الصفراء التي تشرف من ربوتها على سهول بخارى. فأقبل كبير مترجمي الخاقان على جواد يركض نحوهم ليلقاهم، فعرفه فريق منهم للتو، فقد كان في سابق الأيام من كبار تجار جرجان، وهو محمود غلوش، الذي اشتهر بمهارته في الترجمة، لأنه تعلم في رحلاته مع القوافل ألسنة الشعوب المختلفة التي كان يتعامل معها.

وخاطبه أكبر القوم سنا فقال: "إن أسوار مدينتنا عالية وقوية، وفي الإمكان أن تصمد في وجه الهجوم العنيف، فلا تنال إلا بعد أعوام من الحصار الشديد، والجهد الجهيد، وفقدان عدد من الجند المهاجم عديد. ولكننا رأينا أن نجنب الناس متاعب الحصار، ونحقن دماء المؤمنين الأبرار،

ونجنب الخاقان المتاعب والأضرار، فجئنا نعرض عليه تسليم المدينة بغير مقاومة، إذا قطع عاهل المغول على نفسه عهدا أن يكون رحيما بالمغلوبين الذين أفاءوا إليه طامعين في حلمه وعفوه".

فقال محمود غلوش: "انتظر!".

ثم ذهب إلى الخيمة الصفراء، بخطى وئيدة جدا، وعاد منها بعد قليل في نفس هذا البطء الواضح، ولكنه كان يرتعد من الخوف:

– اسمعوا أيها الأشياخ الموقرون ما يقوله لكم الخاقان المعظم: "إنما تقاس قوة الأسوار ومناعتها بقوة قلوب المدافعين عنها ومقدار شجاعتكم. فلا منعة للطوب إذا وهنت القلوب! إنكم مغلوبون فاستسلموا كما يستسلم المغلوب.. افتحوا أبواب مدينتكم على مصراعيها، وانتظروا أمري فيكم".

وعبث الأشياخ الموقرون بلحاهم الطويلة البيضاء، وتبادلوا نظرات الشك والارتياب، وهزوا رؤوسهم مليا، ثم عادوا إلى مدينتهم يجرون أذيال الخيبة، غير مقدرين ما يخبؤه الغيب لسكانها من الويلات الجسام.

والحق أن أسوار بخارى كانت من القوة والمنعة، بحيث تتيح لأهلها الأمن والسلامة شهورا طوالا. ولكن عندما تهن العزائم لا يصفي الناس إلا دعاة الهزيمة ومثبطي الهمم، وينعت الشجعان من دعاة الكرامة بالجنون والحمق، وأعلنوا أنهم سيدافعون عن المدينة حتى الرمق الأخير، واعتصموا بقلعة صغيرة، في حين فتحت المدينة أبوابها على مصراعيها لاستقبال الغزاة.

وما أسرع ما امتلأت شوارع المدينة بألوان من خيل التتار، وفي نظام محكم جعلت طوابيرهم تجوب المدينة، وتتجه كتائب منها لاحتلال معالمها المهمة.. والناس ينظرون من فوق أسطح الدور في فزع إلى أولئك الفرسان، وكأن على رؤوسهم الطير.

فلما تم للمغول احتلال جميع مرافق المدينة دخلها فيلق جميع خيوله بيضاء كالثلج.. وفي وسط هذه الغرفة المنتقاة ظهر للناس عاهل الشرق كأنه عمود متحرك من نار جهنم، وأمامه عملاق من أصحابه يحمل راية الخاقان البيضاء بذيولها التسعة.. ومن ورائه سائسان يقودان جوادا أبيض غير مسرج، له عينان سوداوان يقدح منهما الشرر! وأما ثوب الخاقان، فما كان مزركشا ولا فاخرا. إنما هو رداء سابغ أسود اللون. وأما جواده الأدهم فعليه سرج من الجلد لا زخرفة فيه. وأما عيناه ووجهه، فشيء يخيف حقا، صرامة، وقسوة، وازدراء، يزيد من وطأتها على الناظرين لحية حمراء كأنها شعلة من لهب.

ووصل ركب جنكيز خان إلى الميدان الأكبر، حيث اصطف فرسان الحرس في ثلاثة صفوف قبالة درج المسجد الكبير الذي وقف فوقه كبار الأعيان ووجوه أهل الدين والعلم. وما إن وقف جواد الخاقان أمام الدرج، حتى انبطح الناس الذين غص بهم الميدان من وراء الجند، وقبلوا الأرض خشوعا وخضوعا. كما كانوا يفعلون أمام البادي شاه. ولكن العلماء، وهم رجال الدين وحملة كتاب الله الكريم ظلوا وقوفا فلم يطأطئوا للخاقان رؤوسًا لم تكن لتتطامن إلا أمام جلال الله.

وصاح رجل من الأعيان: "يحيا السلطان جنكيز خان! يحيا البادي شاه جنكيز خان!".

وردد الشعب الهتاف، كما تعود أن يردده.. وسأل جنكيز خان، وقد ذرع المسجد الضخم الفخم بعينيه: "أهذا قصر حاكم المدينة؟".

فقال إمام المسجد: "بل هذا بيت الله، يذكر فيه اسمه".

وهز الخاقان رأسه، ثم افترش قمة الدرج الذي فرش له بالسجاد الفاخر، ومن حوله بنوه وكبار رجال حاشيته، ثم كبار العلماء والوجوه. ثم فتح الخاقان فمه وخاطبهم قائلا:

– لقد اقترف سلطانكم السابق من المساوئ شيئا كثيرا، تراكم على مر السنين، وقد جعلت مني السماء رسول نقمة وعذاب لهذا العاهل الظالم. وإني أهدر الساعة دمه، وأهدر دم كل من يأويه، أو يطعمه ولو حفنة من شعير!

ثم وقف جنكيز خان، ونظر إلى جنوده الذين يملأون الميدان، وقال بصوت جهوري خشن:

– جنودي البسلاء! إن القوم قد حصدوا الغلال قبل نضجها أو أحرقوها حتى لا تجدوا طعاما لكم ولخيولكم. ولكني أعلم أن أهراء الغلال داخل المدينة ملأى. فهي حل لكم، فخذوا منها شبع بطونكم وبطون جيادكم.. وقد أمرت أن يرشد كل وجيه من أهالي بخارى قائدا من قوادي إلى مخازن المؤن والمتاجر الثمينة. ويسجل هذا كله في كتاب خاص، حتى نستصفي أثمان السلع التي نهبها الشاه السابق من قوافل تجارنا المغول

الذين نكل بهم ناكثا عهده في أوترار. ولبأت أهل المدينة إلى هذا المكان توا بألوان الطعام الفاخر والشراب الفاخر، لكي يشبع جنودي الأبطال ويحتفلوا بهذا النصر الذي أحرزته سيوفهم!

وأسرع كبار البخاريين إلى تلبية ما أمر به الخاقان الظافر، الذي أسلموه مدينتهم طوعا. وما هي إلا برهة حتى بدأت الأطعمة والأنبذة تتقاطر على الجيش وضباطه، وأمام الخاقان وحاشيته.

وبدأت النيران الموقدة في طول الميدان الواسع وعرضه يتصاعد منها الدخان، وعليها اللحوم تشوى، من الضأن السمين، والأرز يطهى في ألوان ضخمة من النحاس، وجنكيز خان يتنسم هذه الروائح وهو على قمة درج المسجد، ووراءه مترجمه الأول محمود غلوش.

وأقبل على محمود غلوش –من وراء ظهره طبعًا– رجل مغولي في معطف من الفراء وهمس له: "إن الجنود قبضوا على رجل من رجال الدين، له قلنسوة طويلة، يدعو نفسه درويشا، ومعه غلام في الثالثة عشرة. وكان رجالي على وشك أن يجهزوا عليهما، لولا أن صاح هذا الدرويش بلساننا المغولي الشريف لا تقتلونا. إن محمود غلوش صديقنا وحامينا.. فأمرت رجالنا أن يبقوا عليهما. فلماذا ترى أن نفعل بهما؟".

– هاتهما هنا!

وأحضر الحاج عبد الرحيم وطوقان، فأشار إليهما محمود غلوش بيده أن يجلسا على طرف البساط، إلى جوار الكتبة الذين يسجلون أوامر الخاقان، ولكن جنكيز خان مهما شغلته الأمور، ومهما استغرقه التفكير،

أو أفرط في احتساء النبيذ –كما فعل اليوم– فإنه لا يفقد قوة ملاحظته وحدة ذهنه، فأشار إلى محمود غلوش بطرف عينيه، فنهض محمود ومثل بين يديه. فسأله: "من هذا؟".

– عندما كنت أقوم بتجارة القوافل بناء على أمركم السامي لتسقط الأخبار ومعرفة أسرار الديار، واعتدى عليَّ قاطع الطريق قره قنشار، وكدت أهلك بين الفيافي والقفار، وجدني هذا الرجل وأسعفني بالعلاج، وأنقذني من الموت. أفلا يحق له إذن أن أعني بأمره وأهتم بشأنه!

– طبعا.. طبعا. ولكن لماذا يلبس على رأسه هذا الشيء الطويل؟

– لأنه مسلم يبحث عن الحقيقة، وقد نذر الفقر والعفة، فهذا زي طائفته تلك من محبي الله، ومحبي الخير، وطلاب الفضيلة والحق.

– مرحى! مرحى! أعطوه كأسًا من النبيذ، تعينه على إدراك الحق والخير!

ثم التفت إلى بعض أتباعه وقال: "الآن يحلو سماع الغناء.. أسمعوني شيئا من الغناء الذي أحبه".

فقال محمود غلوش: "أنا أعلم أي أغنية يمكن أن تهش لها نفسك يا مولاي. وسآمر المغنين بإنشادها".

وأخذ الغلام طوقان –ظل الدرويش عبد الرحيم– من يده وذهب به إلى حيث تجمعت النسوة البخاريات، وقال لهن: "رددن وراء هذا الغلام ما يتغنى به، ولكن بصوت يفيض تفجعا".

ومال على أذن طوقان، وهمس له بضع كلمات.

وبدأ هذا الغلام يغني، وكانت أغنية ملأى بالتفجع على الأبطال الصرعى، وعلى استقلال بخارى الذي داسته أقدام الأعداء وعلى العزة التي أصبحت في خبر كان، والأفراح التي دالت دولتها منذ اليوم، ولن تعود إلى آخر الزمان.

وكان النسوة يقطعن هذه الأغنية بالنحيب، والعويل، الصادرين من قلوبهن فعلا، ويهتفن صارخات متفجعات: "أسفا عليك يا خوارزم! طوى الردى مجدك يا بخارى!".

فيرتفع بكاء جميع الخوارزميين المحيطين بالميدان. حتى الشيوخ منهم أخضلت الدموع لحاهم، اللهم إلا خوارزميا واحدا، هو محمود غلوش الجرجاني! الذي ظل جالسا وراء الخاقان، يلحظ المغنيات بنظرات متطلعة، وملامحه لا تنم عن شيء.

وسأله جنكيز خان: "ماذا يغني هذا الغلام.. ولماذا يبكي جميع السامعين؟".

– إنه يغني ذلك الضرب من الغناء الذي يحبه مولاي. إنه يبكي بلاده التي ماتت حريتها تحت أقدام الخاقان! ويرثي مجدها الغابر، الذي ذهب اليوم ولن يعود!

فتغضن وجه جنكيز خان، ثم اختلج فمه كأنه يهم بالابتسام، وفجأة أيضا انطلق يضحك ويقهقه، وأخذ يضرب بطنه بيديه من فرط السرور، وقد اغرورقت بالدمع عيناه!

– يا للسماء! هذه هي الأغنية التي أطرب لها فعلا! فلينتحب العالم أجمع كيما يضحك جنكيز خان. ليحيا السيف، ليحيا الجواد، لتحيا الحرب! آه لو تعلم يا محمود! إنني حين أضع قدمي على صدر عدوي أحب أن أسمعه يصرخ ويتوجع ويطلب الرحمة، ولا أرحمه!

والتفت فجأة إلى قواده، وقال كأنه لم يكن يضحك منذ لحظة واحدة. وكأنه لم يكن يبكي منذ دقائق. وكأنه لم يشرب من النبيذ كؤوسًا لا عدد لها.. فقال بكل جد وهدوء: "آن أن أمضي.. هاتوا لي جوادي.. وسيفي "وطير خان" هنا في بخارى ليحكمها باسمي.. وليتقدم له كل إنسان بالطاعة في جميع ما يأمر به.. ولتوزع عذارى المدينة على الجنود بالتساوي!".

وامتطى جواده، وانصرف من المدينة الباكية، التي استسلمت طوعا حقنا للدماء.

ويل للضعيف

ويل للضعيف

والواقع أن من الخطأ الشائع أن يقال إن جيش المغول كان جيشا من الهمج، يهجم كما تهجم قطعان الذئاب بلا نظام. إن جيشهم كان منظما تنظيما يفوق غيره من الجيوش وكانت الخطط الحربية ترسم بحذق وذكاء. فليست أمية جنكيز خان ورجاله بمانعة أنه كان عبقريا في الحرب، وأن رجاله كانوا موهوبين في القيادة وسوق الجيوش. وقد أعانتهم على تحقيق التفوق العسكري في ذلك الحين طبيعة الطاعة والجلد والشجاعة في شعبهم، وتخاذل أعدائهم، وانحلال الملوك حولهم لأنهم من أعقاب السلالات التي أفسدها الترف والغرور وجو الملق والضعف الذي يعيشون فيه.

والقانون العسكري العام الذي سنه جنكيز خان لجيشه، يجعل كل رجل من المغول على بينة من مكانه بالضبط، في سرية العشرة، وكتيبة المائة، وطابور الألف، وفيلق العشرة آلاف. وكل فيلق يعرف مكانه من الجناح الأيمن أو الجناح الأيسر، أو القلب.

فالجيش المغولي –كان من ناحية التنظيم– كالآلة الضخمة الدقيقة الجيدة التشحيم. يديرها مهندس ماهر، ويزودها بوقود كاف ويواليها بخدمة حسنة.

وما حل هذا الجيش بمدينة بخارى، حتى أقبل بكل نظام على إحصاء كل شيء في المدينة من الرجال والنساء والعذارى الأبكار، والماشية، والمنسوجات، والغلال، وأنواع المؤن المختلفة.

ثم بدأت الجمال والجياد والبغال تحمل هذه الأشياء بكل ترتيب إلى الميدان الكبير، ثم خزنت في المسجد، على حسب أوامر الخاقان بعد أن جعل ثلثها للخاقان نفسه، أما الثلثان فاحتفظ بهما الحاكم لتكون مدخرة لتموين الجيش في مقبل الأيام حتى تنتهي الحرب، فتقسم على الجند.. ثم حشد القادرون على العمل من أهل المدينة لكي يردموا الخندق العميق الذي يحيط بالقلعة التي اعتصم بها قائد الحامية ورجاله وأبوا أن يسلموها مع المدينة. واسم هذا القائد "اختيار خسرو". وكان جنود المغول يراقبون الأهلين وهم يردمون الخندق بالتراب والحجارة، ويضربون المتباطئ منهم والمتعب بالسياط، فلم يمض إلا يومان حتى صار من الممكن الوصول إلى أسوار القلعة التي يقف فوقها المدافعون المستميتون.

وأمر المغول النجارين في بخارى أن يصنعوا لهم سلالم طويلة جدا، وتجمع ألوف الناس لينظروا ماذا سيصنع المغول، ولكن هؤلاء انقضوا على الأهلين بالسيوط يضربونهم ويقولون لهم:

– لماذا تقفون هكذا؟ ضعوا السلالم على أسوار القلعة وتسلقوا إلى سطحها!

وبهت الناس ولم يتحركوا، فتولت سيوف المغول وخناجرهم ورماحهم إقناعهم بمزايا الحركة والطاعة.. فوضعوا السلالم وتسلقوها وهم يصيحون

بالمحصورين في القلعة: "نحن مؤمنون مثلكم.. ارحمونا وألقوا سلاحكم. لا تقاوموا.. سلموا لكي تحفظوا علينا حياتنا".

وتركهم المدافعون حتى كادوا يبلغون القمة، ثم قذفوهم بوابل من الحجارة فأسقطوهم على الأرض وهم يسبونهم: "أيها الجبناء! ارجعوا وحاربوا المغول. إننا جميعا هنا سنموت شهداء، ولكننا لن نسلم لعدونا وعدو بلادنا وديننا".

فاستخدم المغول مجانيق من صنع الصين لقذف القلعة بمواد مشتعلة حتى كثرت فيها الحرائق. ولكن المدافعين استمروا في المقاومة اثني عشر يوما، حتى قضي على معظمهم. وذهل المغول عندما علموا أن كل هذه المقاومة قام بها أربعمائة جندي فقط، صمموا على أن يموتوا قبل أن يسلموا. ولو أن جميع أهل بخارى فعلوا فعلتهم لما سقطت مدينتهم قبل سنة.. إن هي سقطت على الإطلاق!

ولما تم للمغول الاستيلاء على جميع نفائس المدينة، أمروا أهلها أن يتركوها في صباح يوم معين، غير مصطحبين معهم شيئا سوى ما عليهم من اللباس. وأن يقفوا خارج أسوارها وتوعدوا المتخلفين بالقتل والتعذيب.

وفي اليوم المحدد احتشد الناس خارج الأسوار في حالة فزع واضطراب شديد، كأنهم في يوم الحشر، ثم صنفهم الغزاة، فجعلوا الصناع على حدة، ثم جمعوا الشبان الأشداء في موضع وحدهم وحاصروهم بالفرسان، ثم فرزوا النساء الجميلات الصغيرات السن وحدهن، وأوثقوهن بالحبال، وساقوهن أمامهم. فأيقن أنهن مفارقات آلهن فراق الأبد، وعلا الصياح والنواح. ولم

يستطيع أحد الأزواج أن يملك نفسه، فجندله المغول في مكانه وداسوا جثته بسنابك الخيل.. فسكت كل فم، ولم ينبس أحد بكلمة احتجاج، خلا الإمام رقي الدين، من كبار العلماء المسنين، فإنه لم يستطع السكوت، فلقي نفس المصير، وقتل ابنه أيضا عندما هم بالدفاع عن أبيه الشيخ!

كان يوما أسود، فارقت فيه الأمهات أولادهن، والزوجات بعولهن، والعذارى آباءهن، وأخذن جميعا إلى مصير مجهول، هو الخضوع لشهوات بهيمية من جند قساة، لا تربطهن بهم صلة لسان، ولا دين.. إلا إذا كان الدم المهراق والعرض المهدر صلة تذكر في هذا السياق.

ثم أحرقت المدينة، وشرد أهلها في الآفاق.

سقوط سمرقند

ومن بخارى سار جنكيز خان إلى سمرقند.. ولم يقف طويلا بالبلد أو البلدين اللذين قاوماه وأقفلا في وجهه أبوابهما، بل ترك عند كل منهما حامية لحصارها والاستيلاء عليها، ثم استأنف زحفه نحو سمرقند نفسها، فلما وصل إليها نزل في القصر الأخضر، وهو القصر الصيفي للشاه في أرباضها، وسط البساتين والكروم.

وعند أسوار سمرقند وافاه أبناؤه الأربعة، يسوقون جمعا غفيرا من الأسرى بالسياط كأنهم سائمة. وطوقت الجيوش الخمسة المدينة تطويقا تاما.

وسمرقند كانت تعد أمنع مدن خوارزم وأحسنها تحصينا، ويبلغ عدد حاميتها مائة وعشرة آلاف مقاتل، منهم ستون ألفا من التركمان، والبقية

من الكبشاق والغيتان وسائر القبائل. وكان فيها أيضا عشرون فيلا من فيلة القتال التي يلقي مرآها الرعب في القلوب. هذا فضلا عن الأهلين المدنيين الذين يمكن تجنيد جيش كامل من بينهم. فلو أن قيادة المدينة كانت لرجل من طراز خير خان قائد قلعة بخارى، أو تيمور مالك قائد الحرس السابق الذي أغضبت صراحته الشاه، لكان في وسع سمرقند أن تقاوم الحصار أكثر من عام إذا لزم الأمر، ما دامت هناك مؤنة كافية. ولكن البادي شاه علاء الدين مُحَمَّد عين في قيادة تلك الحامية خاله "توغاي خان" شقيق السلطانة الوالدة تورخان خاتون، وهو رجل غفل من التجربة، لا معرفة له بالحرب، ولا سابقة له في القيادة.

وأنفق جنكيز خان يومين في الطواف حول المدينة، وامتحان أسوارها، وأبراجها الخارجية، وخندقها الواسع العميق الذي يزخر بالماء، لكي يتجسس مواطن الضعف، ويحكم خطة الهجوم.

وكيما يروع أهل سمرقند، ويدخل في روعهم أن جنده كثيف لا يقاوم، أتى بالأسرى من المسلمين، وهم جل أهل المدن التي فتحوها في طريقهم، فجعلهم يصطفون على بعد من الأسوار، في مؤخرة جيشه، وجعل كل قائد عشرة منهم يحمل راية! فبدا لأهل سمرقند كأن السهل المحيط بها قد انقلب كله إلى غابة من الرايات والبنود، تحتها عدد لا حصر له من الجنود.

وخرج بعض الكبشاق لمبارزة المغول، أو القيام "بكبسة" مفاجئة. ولكنهم خسروا نحوا من ألف رجل من فرسانهم، وعادوا ببعض الأسرى الذين لا يتجاوزون أصابع اليدين، وتابوا بعدها عن هذه الكبسات! ولكن

بعض المدنيين خرجوا متطوعين، تدفعهم الحماسة للوطن والدين، فاصطنع المغول الفرار، حتى استدرجوهم وقضوا نحبهم!

وفي اليوم الثالث ركب جنكيز خان حصانه وقاد بنفسه الهجوم على المدينة، واستمر القتال سحابة ذلك اليوم حتى المساء. وتحت جنح الليل خرج وجوه القوم، وكبار التجار والأثرياء والأعيان، وبعض الأئمة، فقصدوا إلى معسكر المغول، وطلبوا العفو من مراحم الخاقان! فتقبل منهم الخاقان ولاءهم بقبول حسن، ووعدهم بالرأفة، وهكذا فتحت سمرقند أبوابها للغزاة، ما عدا نفرا قليلا من الشجعان اعتصموا بالقلعة. أما سائر القوات فاستسلمت، وعلى رأسها القائد العام طوغاي خان. ولكن الخاقان نكث بعهده، وفتك بمعظم القواد والجنود، وساق جميع الرجال أسرى، وسبا جميع النساء الجميلات. ولم ينج من سوء المعاملة إلا من كانوا "طابورا خامسا" له، يزودونه بالأخبار، ويطلعونه على الأسرار، ومعظم هؤلاء من الموظفين الكبار.

ونجا أيضا الشجعان الذين اعتصموا بالقلعة، لأنهم خرجوا تحت جنح الليل، فاخترقوا بحد السيف تجمعات المغول، وانطلقوا على ظهور الخيل فاختفوا في الظلام، ليلحقوا سالمين بجيش البادي شاه.

وكما فعل المغول في بخارى، فعلوا في سمرقند، فأخرجوا جميع الأهلين من المدينة بحجة الإحصاء، ثم حملوا النساء بعيدا ففرقوهن على الضباط والجند، وأخذوا الصناع أسرى ليخدموا دولة المغول وجيشها، ثم أخذوا الرجال الأشداء أسرى لتعبيد الطرق وغيرها.

ودخل جنكيز خان المدينة واستعرض قواته فيها، ثم غادرها إلى القصر الصيفي خارجها، فإنه كان يتأذى من حرارة هذه البقاع.

وهكذا صارت سمرقند خرابا يبابا، كأختها بخارى، وهجرها أهلوها، واستعصى تعميرها سنوات طويلة بعد ذلك الحدث الهائل.

أين المفر؟

وفيما كان جنكيز خان يخرب المدن وينهبها في طول خوارزم وعرضها، كان الشاه علاء الدين مُحَمَّد قد أضحى بعيدا عن مسرح هذه الحوادث بعدا شاسعا. فقد لاذ ببلدة صغيرة على نهر جيجون، ومعه جيش صغير العدد. وكان يقول: "إن هدفي هو منع المغول من اجتياز نهر جيجون، وفي مقدوري أن أجمع في إيران جيشا كبيرا ثم أطرد هذا الوباء من بلادنا".

وكانت إقامته في تلك البلدة في برج قديم يطل على النهر ويفضي إليه، تحيط به أسوار غير منتظمة الشكل بنيت من الصخر الصلد. وقد رتب على قمة البرج حراسا يرقبون الأفق، لينذروا بالخطر إذا لاح. وعلى التلال البعيدة حراس آخرون يوقدون النيران بالليل إذا هجم العدو تحت ستار الظلام.

وإلى هذه البلدة وصل أينانش خان ومعه جنديان جريحان، هما كل ما تبقى من الآلاف الخمسة الذين خرجوا لمفاجأة المغول من بخارى ثم آثروا الفرار. وكان رزيق أحد هذين الجنديين المجدودين، وقد جن جنون الشاه عندما علم أن هذا العدد الكبير قد قضي عليه هذا القضاء، وعلى هذا الوجه المهين. وأدت وطأة الهم عليه عندما رأى حكام المناطق المحيطة به

يراوغون في تنفيذ أوامره، كأنهم يمهدون لأنفسهم سبيل الطاعة والقربى عند السيد الجديد المنتظر! ومنهم من كان لا يحضر إليه إذا دعاه، فأيقن من أفول نجمه وانهيار حكمه.

وأمر الشاه فأعد قارب كبير ملئ بالمؤن، ونقلت إليه خزائن الشاه الحافلة بالذهب والجواهر، وجواده الأثير لديه، ثم استقله هو نفسه، وأقلع به من شاطئ تلك البلدة إلى الشاطئ الآخر.

وحين تم عبور المجرى، لم يستطع الملاحون إرساء القارب الضخم على الشاطئ الفارسي، لأنه شاطئ كثير الصخور ضحل الماء. فأمر وكيل القصر نوتيا قويا عريض الكتفين يعمل في المجاديف أن يحمل البادي شاه على كتفيه ثم يخوض به الماء الضحل إلى الشاطئ. وقام النوتي بما طلب إليه بعد عناء شديد، لأن الشاه كان مكتنز الجسم ثقيل الوزن. فلما وضع الشاه قدمه على الشاطئ، سأله: "ما اسمك. ومن أي بلد أنت؟".

– أنا رزيق! وكنت فلاحا أجيرا عند أينانش خان، ثم تبعته إلى الحرب في بخارى، وخرجت معه حين خرج لمفاجأة المغول. وكنت أنوي اقتحام خيمة الخاقان الصفراء لأجهز عليه، لولا أن حصاني جن جنونه عندما رأى سائر رفاقي يتجهون وجهة أخرى، فتبعهم ولم أفلح في رده.. ولحق بنا المغول فقتلوا معظمنا، ولكن كتبت لي أنا النجاة مع زميل لي، وقائدنا أينانش خان بك.

– وهل رأيتني قبل اليوم؟

– لم أرك قبل اليوم شكلا. ولكنني كثيرا ما فكرت فيك كلما طلبوا

منا ضرائب إضافية: قالوا هكذا يريد الشاه. الشاه في حاجة إلى مزيد من النقود. وكلما ضربونا للعجز عن سداد هذه الأموال المطلوبة بغير حق، قالوا هذه أوامر الشاه! فلا عجب يا مولانا أن نفكر فيك كثيرا، نحن الفلاحين المساكين!

فأغرق الشاه في الضحك، وأعطاه دينارا ذهبيا، وقال لوكيل القصر أنه يريد أن يلازمه هذا الجندي الفلاح. فهو نافع في اجتياز مخاضات الماء الضحل، ونافع أيضا في الإنباء بالحقيقة التي يخفيها كل الناس عن السلطان، وهو أحوج الناس إلى معرفتها على وجهها.

– سمعا وطاعة يا مولاي! سألزم جوارك، ولكن اسمح لي أولا أن أعود إلى الشاطئ الآخر لأحضر حذائي.

وأذن له السلطان، فمضى في القارب إلى الشاطئ الآخر. ووقف الشاه قليلا يرقب الشاطئ الآخر، ولكن سرعان ما ارتفعت سحب الدخان من قمم التلال البعيدة، وهي العلامة المتفق عليها للإنذار باقتراب جيش المغول. فكأنما مست الشاه صاعقة من كهرباء، فصاح بمن حوله: "أطلقوا جميع الزوارق في النهر بلا بحارة، حتى لا يجد العدو وسيلة للعبور إلينا".

ثم امتطى جواده وألهبه فأنشأ يجري به لا يلوي على شيء.

وكان جنكيز خان قد أرسل قائديه المتكاملين جيبي نويون وسابوداي باغاتور على رأس عشرين ألف فارس للبحث عن الشاه علاء الدين مُحَمَّد وتعقبه، فوصلا إلى شاطئ نهر جيحون. ولم يجدا أحد يحول بينهما وبين

عبور النهر.. ولم تقف قلة الزوارق عقبة في طريق اجتياز المجرى إلى الشاطئ الآخر.. فصنع المغول أوعية من الخشب كالدلاء، وكسوها بجلد البقر، وجعلوا فيها أسلحتهم ومتاعهم. ثم ساقوا خيلهم إلى النهر، وتعلقوا بذيولها، وعلقوا هم في أرجلهم أو خواصرهم أوعية السلام والمتاع التي صنعوها كالدلاء. بحيث كان الحصان يجر صاحبه، وصاحبه يجر وراءه المتاع.

وهكذا تمكن جميع جند المغول العشرين ألفا من عبور نهر الجيحون.

ولكن الشاه كان قد أمسى بعيدا جدا، موغلا في الهرب نحو الغرب، في إيران. وكان معظمهم من صحبوه من الكبشاق، قبيلة أمه وأخواله. فكانوا يأتمرون عليه. ولكن إنسانا ما حذر الشاه منهم، فصار الشاه يغادر الخيمة التي كان مفروضا أن يبيت فيها وينام في خيمة أخرى. وذات صباح وجدت خيمته المهجورة وكلها خروق، من كثرة ما رشق فيها من سهام الكبشاق!

وزادت بهذا الاكتشاف مخاوف الشاه، فزاد من سرعة هربه. وكان يخطب في كل بلد يمر به حاضا الناس على تقوية الحصون والأسوار ما استطاعوا. ثم مضى راكنا إلى الفرار، فيزيد ذلك من رعب الناس، وتضعف عزيمتهم على الصمود في وجه العدو.

ولم تهدأ أنفاس الشاه حتى بلغ نيسابور وراء الجبال، فأخلد إلى شيء من الراحة، وراح يغرق أحزانه في المآدب الصاخبة، لعله ينسى. ولكن المغول كانوا في أعقابه، فلما بلغ الشاه أنهم قد باتوا على طريق نيسابور،

أعلن أنه خارج للصيد، ثم لاذ بالفرار لا يصحبه إلا عدد يسير من الرجال، محاولا إخفاء آثاره عن مطارديه.

وبلغ المغول نيسابور، مخربين في طريقهم إليها سائر المدن التي مروا بها.. ومن نيسابور أرسلوا كتائب صغيرة انتشرت في جميع الجهات، للبحث عن مكان الشاه الهارب. فكانت هذه الكتائب لا تمر بقرية إلا أحرقتها بعد أن تهبها، وأما الناس فكانوا يقتلونهم جزافا، لا يبقون على شيخ أو مريض أو طفل أو امرأة، ما لم تكن مليحة، فإنهم كانوا يغتصبونها ثم يقتلونها بعد ذلك!

وكان الشاه قد أفلح فعلا في جمع جيش كبير، قوامه عشرون ألف فارس، وعسكر بهم في سهل "دولة آباد" بالقرب من "حماد آباد"، وإذا بالمغول يحدقون به. وكان الرعب أقوى على جند الشاه من سيوف المغول، فذبحوهم ذبحا! واضطر الشاه إلى الهرب مرة أخرى متنكرا هذه المرة في ثياب قروي، واختفى في الجبال، ففقد المغول أثره نهائيا.

ومن هناك توجه المغول إلى الغرب، إلى زنجان وقزوين، واستولوا على أذربيجان وجاوزوها إلى مقاطعة جورجيا، حيث قاومهم أهلها مقاومة باسلة.

وكانت خطتهم في جميع الأحوال: اضرب وانهب واخرب!

جزيرة اللعنة

وظل الشاه علاء الدين مُحَّد يضرب في الجبال، حتى وصل إلى ضواحي مدينة حامول فاختبأ هناك، ومثل أمراء هذه الجهة بين يديه وقدموا له

فروض الولاء، وأظهروا له استعدادهم لخدمته، ولكنه كان قد فقد الثقة في كل إنسان، فجعل يتوجع ويقول: "رباه! أما من مكان لا تصل إليه عاصفة المغول، أختبئ فيه وأحظى بشيء من الاستقرار والراحة والأمن؟".

فأشاروا عليه جميعا، أن آمن ملجأ يلجأ إليه، أن يركب البحر، ويحاول الاختفاء في جزيرة من جزره الصغيرة الكثيرة، التي يخلو بعضها من السكان. فلاقت هذه النصيحة هوى في نفسه، وركب البحر إلى جزيرة منعزلة موحشة، لا يبدو فيها أي أثر من آثار الحياة. وما أسرع ما لحق به هناك أبناؤه الثلاثة، وعلى رأسهم جلال الدين. وهناك وقع الشاه وثيقة يغير بها ولاية العهد فيعيدها إلى ابنه الأكبر جلال الدين خان، وقال في هذا:

"إن جلال الدين هو الذي يستطيع دون غيره أن يعيد الأمور إلى نصابها، فهو ليس خائفا من المغول، ولا يفقد رباطة جأشه أمامهم. وقد فوضته في كل ما من شأنه رفع هذا البلاء. وأقسم برب العزة والجلال، إنه إذا استطاع جلال الدين رد المغول، وطردهم من بلادنا، فإنني سأسير في العباد سيرة صالحة أساسها العدل والبر وإصلاح أحوال الرعية".

ثم قلد ابنه جلال الدين سيفه المرصع، وخلع عليه لقب "سلطان" وأمر ولديه الآخرين أن يقسما على طاعته واحترامه وتأييده.

ووضع جلال الدين يده على حمالة السيف وقال بأسى: "لقد أعطيت السلطان على المملكة بعد أن ضاعت أدراج الرياح! ووليت أمرا تولاه عنا المغول. وأمرت على جيش تقسمه الموت والفرار، ولكني سأجمع جندا

جديدا من أهل الشجاعة والإيمان، وأسترد بلاد الإسلام من قبضة الشيطان!".

واستأذن جلال الدين في السفر، لكي يستعد للكفاح المرير. وذهب معه أخواه، وبقي علاء الدين مُحَمَّد، شاه خوارزم، وحيدا فريدا في الجزيرة الموحشة.

فلما ابتعد القارب بأبنائه، استلقى على الرمل. وكان منهوك القوى من الهم والسفر، فأغفى ونام. ولكن شيئا كالهمس أو الوسوسة أيقظه من نومه، ونظر حوله فأبصر جماعة من الناس يجرون فوق الرمل، وفي وسطهم مخلوق عجيب مقزز الهيئة.

وأسرع الشاه إلى خيمته، فإذا سحابة من الدخان معقودة فوقها، لأن بضعة عشر رجلا كانوا قد أوقدوا أمامها نارا، ووضعوا فوقها طعاما لينضج، والتفوا حول النار ينتظرون نضج الطعام.

وصاح واحد منهم في وجه الشاه: "من أنت؟ ولماذا جئت إلى هنا؟ لقد طاردونا في كل مكان، ولم يقبلوا أيان ذهبنا، فجئنا إلى هذه الجزيرة الخالية".

– ولكن من أنتم؟

– نحن قوم أصابتهم لعنة الله وحلت عليهم نقمته. فجئنا هذه جزيرة، واتخذنا صيد السمك حرفة لنا.

وصاح به آخر: "أما ترانا مصابين بالبرص؟ إننا نموت عضوا فعضوا،

ونحن على قيد الحياة! انظر إلى هذا الرجل: لقد سقطت أصابع يديه جميعا. وهذا قد ذهبت قدماه. وذهبت ذراعاه حتى المرفق، فهو يسير على أربع. وهذا رجل ذهب لسانه وصار أصم.. ولكن لعل الله أصغى إلى دعائنا، فلطالما تضرعنا إليه أن يرحمنا ويرسل إلينا أحدا يساعدنا. وها نحن نراه قد فعل!

– ولكن كيف أساعدكم؟

وقام رجل عملاق، في يده فأس، لوح بها فوق رأس الشاه وقال له في غلظة وتوعد: "أنت شديد صحيح البنية، تنفعنا في جر الشباك، وإصلاحها، وفي السقاية وما إلى ذلك، مما يعجز عنه الكثيرون وستخلع عنك ملابسك –فأنت سمين يدفؤك لحمك وشحمك– فيلبسها كل منا على التوالي!".

وأطلق السلطان محمد ساقيه للريح، ولكن البرص لحقوا به وأرغموه على خلع ملابسه جميعا، فجمع حشائش البحر الجافة وأشعل فيها النار، وحاول البرص أن يقنعوه بمشاركتهم الطعام الذي أخذوه من خيمته أو الاقتراب منهم، ولكنه أبى، وظل ملقى على الشاطئ حتى مات جوعا وعطشا!

وبعد خمسة عشر يوما جاءت سفينة عليها جند، وعلى رأسهم تيمور مالك، تحمل مؤنة للشاه، فوجدوه ملقى على الشاطئ، عاريا من ملابسه، وغراب أسود واقف فوق رأسه ينقر في عينيه!

وثار الجنود، وانطلقوا يريدون الفتك بالبرص، ولكن تيمور مالك

حينما عرف الحقيقة نهى رجاله قائلا لهم:

– لا تقتلوهم، فقد عاقبهم الله بما فيه الكفاية. وإني والله أتعس منهم وأشقى! فقد بذلت دمي وأرقته في سبيل شاهات خوارزم، وقد حسبت الشرف والكرامة وعزة الوطن واللمة ممثلة في هذا الشاه. ولكن هأنذا بعد هذا العمر الطويل الذي قضيته في القتال، أشعر بالخجل من جروحي التي أصبت بها في سبيل شيء تافه لا يستحق دفاعا ولا صيانة، والوفاء له والوفاء للجبن والخسة والخيانة!

واستل تيمور مالك سيفه، وكسره على ركبته وألقاه بعيدا، ثم نضا رداءه وغطى به جسد الشاه العاري، وأمر جنوده فحفروا له قبرا في رمال الشاطئ ألحده فيه، بعد أن صلى عليه، ثم أهال عليه التراب. ورحل مع جنوده تاركا للوحدة والغربة شاه خوارزم.

رزيق في داره

تركنا الجندي الفلاح رزيق في الشاطئ الآخر يحاول إحضار حذائه ليعود إلى الشاه في الشاطئ الإيراني. ولكن رزيقا لم يحاول العودة إلى الشاه، لأن معنى هذا هو البعد إلى الأبد عن أولاده وبيته! ثم هو لا يريد أن يقضي عمره كله "حصانا" للشاه، يحمله من شاطئ إلى شاطئ كدواب الحمل.

ولما تصايح الناس مذعورين لإقبال التتار، اختفى في قبر قديم حتى مر جيشهم، واستأنف مسيره على قدميه عائدا إلى بلده، ودينار الشاه في فمه، تحت لسانه، حتى لا يسلبه منه أحد!

وكلما مر بقرية سأله أهلها عن أخبار القتال، وما يقال عن التتار، فكان يخترع لهم قصصا تخيفهم، وتشوقهم، ثم أخذ يزعم أنه قائد معهم، وأنه حارب المغول في كثير من الأحيان وحده، فكانوا يفرون منه. ولولا تخاذل زملائه لما انتصر هؤلاء البرابرة على جيش خوارزم!

وبدأ مع مرور الوقت وتكرار الحديث يصدق ما زعمه عن نفسه! فوجد في نفسه الشجاعة –حين صادف فارسا مغوليا في الطريق– لأن يذبحه بسكينه. واستولى على حصانه، واستأنف رحلته راكبا، وهو يثني على بسالة "رزيق بطل العالم!".

ولما بلغ رزيق بلده، وجد كوخه القديم متصدع الجدران، خاويا على عروشه، فأيقن بهلاك أهله أجمعين: أمه وزوجته وأولاده، فجعل يندب حظه. ثم أدخل حصانه، وجمع بعض الحشائش واستعد للنوم بعد رحلته الطويلة الشاقة. عندما سمع أنينا من الغرفة الداخلية، التي تستعمل مخزنا للمؤنة، فدخلها، فإذا أمه العجوز في حالة أشبه ما تكون بالنزع، فما إن رأته حتى تعلقت بعنقه وهي تقول بصوت خافت متقطع: "كنت أعلم يا رب أنه ستعود إلي!".

– ولكن أين الآخرون؟

– هربوا جميعا إلى الجبال، وبقيت أنا لأحرس البيت، ولكني وهنت، ورقدت. وكدت أموت لولا أنك حضرت الآن، اسقني إني ظمآنة.. شكرا يا ولدي. وما دمت قد عدت، فكل شيء سيعود إلى ما يرام.

ونشط رزيق إلى خدمة أمه المريضة، التي ردت إليها عودته بعض

عافيتها. ثم مضى إلى الجبل يبحث عن زوجته وبنيه، حتى وجدهم وعاد بهم.

وقابله جاره الشيخ الكولي العجوز وقال له: "لقد ماتت امرأتي، ومات أولادي. ولكن عندي حمارا وبقرة.. وأنت وزوجة قوية، فهيا نزرع الأرض معا".

– أنزرعها من أجل الأسياد الجدد؟

– وهل هم شر من الأسياد القدامى؟ لقد كانوا يأخذون معظم المحصول. وهؤلاء سيفعلون هذا أيضا. وهذا نصيبنا في الدنيا. فهل نعارض حكم الله؟

السلطانة.. وجلال الدين

السلطانة

وهكذا أتم المغول في ربيع واحد الاستيلاء على جميع بلاد ما وراء النهر.. وقد عنوا بإعادة تنظيم العمل فيها وحسن استغلالها. فوضع جنكيز خان حاميات مغولية في جميع المدن، وحكاما وطنيين لهم "مستشارون" من المغول، حتى بات كل شيء محصورا تحت عين الخاقان الساهرة، سواء من جهة المصارف والموارد.

وإنها للفتة عبقرية من هذا الخاقان الأمي، أن يجعل الحكام من أهل البلاد "برادع" المحتلين. فإن هذا يجعل الحكم بمثابة "مخالب القطط"، ويحمل مسؤولية العمل للأهلين. والثمرة خالصة للغاصبين، والنفوذ كل النفوذ لهم عن طريق المستشارين المغول. والحق أن هذا النظام، جعل كثيرا من الفلاحين الذين هجروا أرضهم وزراعتهم فزعا من المغول، يعودون إلى العمل والإنتاج، مطمئنين لوجود حكام من بني جلدتهم، كما كان الحال أولا. بيد أن اضطراب الأمور استمر مدة طويلة، لأن الجوع، والخراب، وتدمير الدور والآلات، وقتل الحيوانات والفتك باليد العاملة، وانتشار الأوبئة من تعفن آلاف الجثث. كل هذا جعل الأمور لا تميل إلى سرعة الاستقرار على نهجها الأول الذي كانت تسير عليه وقت السلم. بل إن الجياع من الأهلين المشردين واللاجئين عمدوا إلى القتل والسلب لكي

يحصلوا على ما يقيم أودهم.

هذا في جميع مقاطعات خوارزم، خلا قلبها النابض، في حوض الجيحون الأدنى، حيث عاصمة البلاد العريقة "جرجان". فقد بقيت سليمة لم تمس، بعد أن أحاطت بها البلاد المحتلة، كأنها جزيرة وسط بحر متلاطم النوء.

وكان جنكيز خان مطمئنا إلى استيلائه على هذه المنطقة في أي وقت يشاء. وقد أسند مهمة فتحها لأبنائه الثلاثة: يوشي وشاغاتاي وأوغيتاي وأعطاهم جانبا كبيرا من جيشه، فسار الأصغران شاغاتاي وأوغيداي نحو جرجان من الجنوب، على محاذاة نهر جيحون. أما الابن الأكبر، الصعب المراس المستقل الرأي، فبقي بجيشه في ضواحي مدينة جند، وجعل يقضي الوقت في صيد حمار الوحش! وجعل يجمع من المراعي المجاورة، الخيول البيضاء والصهباء، المفضلة لدى الخاقان.

وكان الخاقان قد استقر بجيوشه على ضفاف الجيحون، وقرر أن يعسكر هناك طول فترة الشتاء. ثم أرسل أحد كبار جواسيسه من الأعيان الخوارزميين السابقين إلى مدينة جرجان، ليقابل السلطانة الوالدة طرخان خاتون، التي تتولى الوصاية على العرش، وقال لها:

– إن الخاقان ليس بينه وبينك عداء. فعدوه هو ولدك الشاه علاء الدين مُحَمَّد. وإن الخاقان يعد السلطانة إن هي أعلنت ولاءها للخاقان، فإنه سيترك لها البلاد التي تحكمها ولا يتعرض لها بسوء.

ولكن امرأة داهية مثل طرخان خاتون ليس من المتوقع أن تنخدع

بوعود الخاقان الماكر الذي لم يكن له وعد ولا عهد، ولا كلمة شرف يوثق بها إلا مع المغول من بني جنسه.

وفي هذا اليوم نفسه وصلت إليها رسالة من ولدها الشاه، كتبها عند فراره إلى الضفة الأخرى، ينبؤها فيها بفراره إلى خراسان لتكوين جيش جديد. ويحذرها من الاطمئنان إلى جنكيز خان، ويطلب منها أن تحضر إليه مع جميع حريمه. فأزعجتها هذه الأنباء، وتبينت مبلغ الخطر المحدق بها إن هي بقيت في خوارزم، فأمرت بإعداد قافلة كبرى حشدت فيها جميع نساء الشاه وأبنائه، وجميع الجواهر الثمينة، واتجهت بالقافلة إلى الجنوب، مخترقة الجبال والفيافي.

وأشار عليها بعض مرافقيها أثناء الطريق أن تميل إلى إيران، حيث يكون حفيدها جلال الدين جيشا جديدا، وأشادوا جميعا بما يبديه من الهمة والشجاعة. ولكنها أبت إباء شديدا أن تلوذ بكنف هذا الحفيد الذي تكرهه وطالما حاربته كراهة لأمه. وقالت إنها تفضل على هذه الحياة أن تقع أسيرة في يد جنكيز خان!

وسرعان ما أدركها المغول بالفعل، فاستسلمت لهم مع سائر من معها، فقتلوا الأطفال الذكور جميعا من أبناء السلطان، وأرسلوا السلطانة، وجميع حريم السلطان وبناته إلى جنكيز خان نفسه للتصرف. وأما الحراس والحاشية فذبحوا ذبح النعاج.

وقام جنكيز خان بتوزيع بنات الشاه على أبنائه والمقربين إليه. واحتفظ بالسلطانة طرخان خاتون ليعرضها في قفص عندما يكون لديه

ضيوف على المائدة أو للسمر! فيقذف إليها بالعظام التي تتخلف عن أكله!

جلال الدين يتحدى

فارق جلال الدين وأخواه غير الشقيقين والدهم، ومعهم سبعة عشر فارسا، واتجهوا إلى جرجان حاضرة خوارزم. وكانت القبائل المنتقلة بين السهل والجبل تكرم وفادتهم، وتزودهم بالخيل إذا كانت خيولهم. فما بلغوا جرجان حتى أعلنوا لكبار القوم فيها أن الشاه قد عدل مرسوم ولاية العهد، فجعلها مرة أخرى لابنه الأكبر السلطان جلال الدين. ولكن كبار رجال الدولة من الكبشاق.. ولهذا رفضوا إقرار مثل هذا التعديل.

وائتمر الكبشاق فيما بينهم، وبيتوا النية على قتل جلال الدين، ولكن أينانش خان حذره في الوقت المناسب، فقال محسورا:

– وماذا ينتظر مني أن أصنع في مدينة كهذه، لا تريد أن تتعلم مزايا الاتحاد والتضامن من وجه الخطر الداهم؟

وتحت جنح الليل، صحب جلال الدين صديقه القديم، قائد حرس أبيه الباسل تيمور مالك، وثلاثمائة من التركمان، وغادروا جرجان، سرا إلى الجنوب، حتى بلغوا ناسه. وأرسلوا من هناك كتائب وسرايا للاستكشاف، فجاءتهم بنبأ وجود سرايا من المغول في السهل القريب، فصاح تيمور مالك:

– إننا مجهدون من الرحلة الشاقة الطويلة، وخيلنا قد أصابها الإعياء أيضا. ولكن كيف نبيت ليلتنا وفي جوارنا عدو لا نذيقه طعم سيوفنا

الظمأى إلى الدماء؟

فأجابه جلال الدين: "حاشا! حاشا! سنذيقهم طعم سيوفنا يا تيمور!".

وتحرك فيلق جلال الدين، المغول، وحمي وطيس القتال. فكلا الفريقين شجاع مستميت، ولكن المغول لم يلبثوا أن ركنوا إلى الفرار عندما تبينوا شدة عدوهم، فكان هذا أول لقاء ينهزم فيه المغول أمام المسلمين.

وكانت غنيمة التركمان الكبرى ذلك اليوم، هي خيل المغول، فركبوها واستأنفوا السير إلى نيسابور، ومنها إلى غزنة، وكان جلال الدين كلما مر ببلدة كسب أنصار جددا من محبيه، حتى صار له جند بلغ عدده ثلاثين ألفا، وقد انضم إليهم غيرهم من قبائل الأفغان فصار عددهم ستين ألفا بين فارس ورجال. ثم جعل يغير على تجمعات المغول القريبة، ويهدد مواصلاتهم.

ثم أرسل جلال الدين رسالة إلى جنكيز خان شخصيا، يقول فيها: "عين المكان والسلاح لنلتقي في مبارزة فردية.. وسأوافيك حيث تقول!".

ولم يجبه جنكيز خان، وأرسل إليه البعوث الضخمة لقهره.. فتقدم جلال الدين لملاقاة هذه الجيوش. واستمرت المعركة يومين كاملين، اضطر بعدها المغول إلى الفرار، ولكن لم ينج منهم من القتل إلا كتيبة صغيرة، عادت تحمل أنباء الهزيمة القاصمة إلى جنكيز خان...

وقد انتشرت أخبار هذه الهزيمة التي مني بها المغول في السهل والجبل، حتى أن المغول الذين كانوا يحاصرون مدينة بلخ ذعروا من أخبارها فرفعوا

الحصار وتراجعوا إلى الشمال. كما قام الأهلون في بعض البلاد التي يحتلها المغول، فذبحوا الحامية المغولية عن آخرها، ورفعوا علم الثورة.

ولجأ جنكيز خان مرة أخرى إلى الحيلة والخديعة، لأنه وجدهما أنسب الأسلحة لمواجهة هذه العاصفة. فبعث إلى كبار الخانات ورؤوس العشائر الذين يحاربون تحت لواء جلال الدين، ومناهم بأحمال من الذهب الخالص إذا هم تخلوا عن السلطان جلال الدين.

وسرعان ما نشبت خلافات لأسباب تافهة في معسكر جلال الدين، حول اقتسام الأسلوب وما إلى ذلك. ولم يستطع جلال الدين تسوية النزاع بالوسائل السلمية. وانتهى الأمر بخروج أكثر من أربعة قواد بجنودهم من الحلف الذي يتزعمه جلال الدين، وسرت حماقة العصبية والتنابذ بالأجداد بين أجناس الجنود.

ولم يتبق مع جلال الدين إلا فئة التركمان القليلة العدد، تحت قيادة "أمين الملك". أما جنكيز خان فراح يجمع من قواته كل ما يمكن الاستغناء عنه في موضعه، حتى اجتمع له جيش ضخم من الفرسان، جعل يستحثه على السير بسرعة خرافية إلى غزنة.

موقعة نهر السند

وعجز جلال الدين –بعد أن تخلى قواده بجنودهم عنه– عن لقاء المغول في قتال صريح، كما كان يتمنى، فاضطر أن يتراجع إلى الجنوب. ولكن نهر السند وقف في طريق تراجعه بمجراه الواسع الذي تحف به الجبال العالية. فأسرع السلطان جلال الدين يجمع الصنادل والقوارب لكي يعبر

بجيشه الصغير، ولكن التيار الشديد قذف بالقوارب فحطمها على الشاطئ الصخري. فأتوه بقارب كبير أنزل فيه زوجته وأمه ومن إليهما، ليحاول العبور بهما إلى الضفة الأخرى. ولكن هذا القارب تحطم أيضا، وبقيت النساء مع الجنود.

وعلى حين فجأة، جاء رسول مسرع صائحا: "لقد اقترب المغول".

وكان الوقت في ساعة متأخرة من الليل، وقد شملت الظلمة التامة الكون. وكان جنكيز خان قد علم أن السلطان جلال الدين يحاول عبور نهر السند، فزاد من سير رجاله سرعة على سرعة، لكي ينقض على جند السلطان قبل أن يتمكنوا من اجتياز النهر، وسار بجيشه طول الليل، فبلغ موضع العدو عند الفجر، ووضع خطته بحيث يلتحم به من ثلاث جهات. وكان جنود جلال الدين قد جعلوا أنفسهم على شكل نصف دائرة قطرها شاطئ نهر السند، أو على شكل قوس وتره الشاطئ. وأمر جنكيز خان رجاله ألا يرشقوا جلال الدين بالسهام، لأنه يريده حيا.

واتخذ جلال الدين مكانه وسط الجيش على صهوة جواده، وحوله سبعمائة من الجنود المعروفين بشجاعتهم الفائقة. فلما أبصر جنكيز خان على قمة تل يدبر منه دفة المعركة، ألقى جلال الدين بنفسه ومعه جنده السبعمائة المختارون في غمار المعركة مهاجمين بشدة لم يسبق لها نظير، حتى أنهم أرغموا المغول على التراجع، وحتى أن الخاقان نفسه ولى الأدبار وركن إلى الفرار!

الفارس الأسود

الفارس الأسود

منذ التقى عبد الرحيم وطوقان بمحمود غلوش، في مجلس الخاقان عند جامع بخارى، لم يترك عبد الرحيم خدمة محمود غلوش الذي بسط عليه حمايته، وكان يلازمه أخوه طوقان بطبيعة الحال.

وصار محمود غلوش، عند استقرار الأمور، وزيرا ومستشارا للحاكم العام لبلاد ما وراء النهر، وهو شاغاتاي ابن جنكيز خان. وكان شاغاتاي محبا للصيد والقصف والمآدب، فترك جميع السلطة في يد محمود غلوش الذي صار يفرض الضرائب ويجبيها، ويحصر ممتلكات الأعداء ويستصفيها.

وجعل محمود أيضا يشجع الفلاحين على العودة إلى أراضيهم المهجورة، ليزرعوها قمحا وقطنا، مغريا إياهم بتملك الأرض التي يزرعونها. ولكنه كان يزعم لهم هذا لكي يعودوا، حتى إذا عادوا جعل يحصل منهم الإيجار الذي كانوا يدفعونه إلى البكوات السابقين في "العهد البائد".

وعين محمود غلوش الحاج عبد الرحيم الدرويش كاتبا له، أولا: لثقته الكبيرة، وثانيا: لأنه كان لا يقبل الرشوة، وثالثا: لأنه كان لا يعطيه أجرا بحجة أنه درويش وأن متاع هذه الدنيا الفانية سيكون سبب هلاك الناس في اليوم الآخر؟!

والواقع أن أي إنسان غير الحاج عبد الرحيم، لو كان في مكانه في ظروف تلك الفترة المضطربة القاسية من الزمن، لعد نفسه أسعد أهل الأرض جميعا. فقد أجرى عليه غلوش "جراية" طيبة، وأسكنه بيتا جميلا وجعل له عبدا يخدمه. ولكن الحاج عبد الرحيم لم يكن طالب راحة أو رجل دنيا، وإنما هو طالب حقيقة وفضيلة. وهو إنسان ذو قلب رقيق وحس مرهف. وقد كانت وظيفته في ديوان الحاكم العام سببا في سماعه كل يوم ألوانا من الشكاوى المرة من مظالم الحكام الجدد، وقسوتهم قسوة تقشعر من هولها الأبدان. حتى سخط على الزمان والمكان، وأصبح يتأذى من العمل مع هؤلاء الطغاة القساة. فذهب إلى محمود غلوش وأفضى له بمكنون صدره، فقال له محمود، وقد ارتسم الجد على محياه:

– كأنك إذن تراني خائنا لأنني أخدم عدو بلادي وديني. اللهم إن هذا غير صحيح، وأنت وحدك يا رب تعلم هذا! فإن بلادنا جريحة، وجراحها خطيرة، وعدوها غاشم. ومهمة مثلي ومثلك يا حاج أن يبقى في بلده ولا يتركها في وقت الشدة، فقد يكون وجوده سببا في تخفيف وطأة الظلم والضر، وإسداء بعض النفع والخير.

– قد يكون الأمر كذلك يا سيدي! ولكن قلبي لا يطيقه فأعطني عملا آخر، لا يجعلني أسمع أنات المتوجعين طول الوقت.

– وهو كذلك يا حاج! سأكل إليك مهمة على أقصى جانب من الخطورة والنفع العام. لقد كنت سمعت أن يوشي أكبر أبناء جنكيز خان قد ولاه أبوه شمال خوارزم، وأمر بفتحها. وأعلم أيضا أن أهل جرجان لن

يسلموها بغير قتال كما فعل أهل بخارى وسمرقند. وأريد أن أبعث إلى يوشي برسالة، ولكن الطريق غير مأمون، والعصابات تفتك بالمغول المسافرين في الحين بعد الحين، وعلى رأس هذه العصابات فارس أسود، على جواد أسود، لم تفلح جهود المغول في اقتناصه أو الإيقاع به. وسأعطيك خطابا إلى يوشي نفسه، عليك أن تخفيه حتى لا يعلم به أحد، سواء من المغول أو من رجال الفارس الأسود، وإلا كان في ذلك هلاكي وهلاكك!

– سأسلمه إلى يوشي، ولن تصل إليه يد أحد سواه، ولست أخشى الفارس الأسود ورجاله المسلمين.. فإني درويش تحميني دراعتي وتكفل لي السلامة والإكرام. ولكن ماذا أصنع بالمغول الغلاظ الأكباد، الذين يقتلون أول من يصادفهم في الطريق؟

– الصقر الذهبي يا حاج! سأعطيك صقري الذهبي، وهو كما تعلم ضمان المرور والإكرام عند كافة المغول.

– وأخي الصغير، طوقان، ما أصنع به؟

– تصحبه معك، ويتعلم حرفة الجندية في معسكر يوشي. والآن توكل على الله، وصحبتك السلامة.

وأعطاه رسالة مختومة.

الفارس الأسود

بدأ الحاج عبد الرحيم وأخوه طوقان رحلتهما قبيل المساء، وكان الحاج

عبد الرحيم يسير في المقدمة، بخطى ثابتة رتيبة، ويتغنى أثناء سيره بشعر في مدح الرسول ﷺ، أو غزلا صوفيا، ولا سيما أغنية ابن سينا التي مطلعها:

هبطت إليك من المحل الأرفع　　　　ورقاء ذات تحـــجب وتمنع

وشقيقه طوقان، الذي أخذ جسمه ينمو، يسير خلفه بخطو طويل، وعلى كتفه زادهما وما يحملانه في سفرهما لإصلاح شأنهما، وعلى الحمار الذي يسير بينهما أحمال من الكتب والأوراق، بعضها في التصوف، وبعضها قصائد من الشعر العربي والفارسي.

وعند موضع مهجور مقفر من الطريق برزت له كوكبة من الفرسان، قطعت عليه الطريق، وقال واحد منهم مسن في وجهه ندوب كثيرة: "قف يا حاج! ما اسمك؟".

– وماذا تريد من اسمي، كتب الله لك السعادة والتوفيق؟

– إني أعرفك! لقد كنت كاتب محمود غلوش الخائن، "بردعة" المغول، ولهذا ستلقى الآن جزاء خدمتك هذا المجرم.

– في كلامك قطرة من الحقيقة، ولكنها مخلوطة في خضم من الأكاذيب! لقد كنت حقيقة كاتبا لمحمود غلوش، ولكني لم أسرق، ولم أخن، ولم أقتل. أما عقابك الذي تتوعدني به، فقل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا!

– إذا كنت حريصا على رأسك إذن فاتبعنا ولا تحاول الهرب.

– ولماذا أهرب منكم؟ إن العمر بيد الله وحده، وقد تعودت أن أجيب نداء كل من يدعوني. ولكنك لم تقل لي ما اسمك، حتى أعرف من

سأتهمه أمام عرش الله يوم الحساب الأخير!

– قبل أن تحاسبني يوم الحساب الأخير، سيتولى الليلة حسابك سيف الفارس الأسود، قائدنا الباسل الذي نتوجه إليه الآن.

رحل المساء قبل أن يصلوا إلى غاية تلك الرحلة في عرض الصحراء الجرداء، التي لا معالم فيها غير الكثبان المتشابهة، التي انحرفوا وراء واحدة منها، فإذا نار معسكر. فربطت أيدي الدرويش وأخيه وراء ظهريهما، وكذلك وضعت في عنقيهما حبال غليظة من الكتان، حتى لا يتحينا الفرصة في الظلام للهرب، ثم جرهما آسرهما الشيخ من عنقيهما، فألقى بهما على الأرض أمام النار، حيث تصدر المجلس شاب تركماني طويل القامة براق العينين، وإلى جواره على البساط الذي يجلس فوقه سيف صقيل عريض النصل، فجعل الحاج عبدالرحيم يقول في نفسه أين تراني رأيت هذا الوجه من قبل؟

وكان هذا التركماني يستحق لقب الفارس الأسود عن جدارة فعلى رأسه قلنسوة سوداء من الفراء، وعلى جسمه ثياب سود من جلد الشاه، وعلى مقربة منه جواد أسود كأنه قطعة من فحمة الليل.

وقد أحاط بهذا الفارس الأسود جماعة من التركمان، عليهم ثياب مهلهلة، ولكن أسلحتهم جيدة، براقة، كأنها مصنوعة من الفضة الخالصة، وقد جعلوا يحدقون في الأسيرين، وبعضهم باسم هازئ، والبعض الآخر كاشر عن أنيابه!

وتولى بعضهم إلقاء ما كان على الحمار الأسود من الأحمال. فإذا

معظمها كتب ومحبرة أقلام، فقال الفارس الأسود: "ما هذه الكتب يا شيخ؟".

– هذا كتاب عن الإسكندر ذي القرنين.

– كنت أتمنى أن تقرأ لي طرفا منه، فإني أحب هذا الإسكندر، ولكن يبدو أن عزرائيل سيتولى سماعه عني! فإنه سيقبض الليلة روحك! ولكن هذا الكتاب الآخر، ماذا فيه؟

– فيه طرف من قصة فهد الصحراء، قره قونشار!

– هكذا! يبدو أنك تعرف أشياء كثيرة أيها الشيخ، لا بأس سنؤجل إعدامك حتى الصباح، كي تنشدنا طرفا من سير الأبطال نقطع بسماعها هذا الليل الطويل.

– سأغنيك أيها الخان.. سأتغنى بين يديك بما كان في يوم من الأيام، بين فارس التركمان، وبين قول جميل.

وما سمع الفارس الأسود اسم قول جميل، حتى لمعت عيناه، واعتدل في مجلسه واستعد للسماع.

حكاية قول جميل

كانت قول جميل فتاة فلاحة فقيرة، ولكنها بارعة الحسن، ساحرة الجمال. وكان موطن هذا الغزال الكامل الصفات، الحلو اللفتات، الساجي الطرف، هو بيداء التركمان، حيث الفرسان أشجع من في العالم من فرسان، وكانت قول جميل ترعى الأغنام، وتتغنى لها بأغنيات عذاب

تعلمتها من جدها الشيخ الوقور "قرقد"، الذي اشتغل بالرعي سنين طويلة، وكان يحسن في زمانه التغني على أنغام المزمار، وكان أبناؤه جميعا قد ماتوا، ولم تبق له إلا حفيدته من بنته الوحيدة، وهذه الحفيدة هي قول جميل، ريحانة صحراء التركمان.

وكبرت قول جميل، وشبت عن الطوق، وحان الوقت الذي يطلب يدها فيه الشبان، ولكن جدها كان يأبى ويقول: "إن مهر مثل قول جميل، ينبغي أن يكون قطيعا من الإبل، وقطيعا مثله من الخيل، وقطيعا ثالثا من الغنم".

وكان قرقد كلما جاءه خاطب لها بمهر طيب، رفع قيمة المهر بحيث يشق عليه، حتى يئس جميع الخاطبين. ما عدا واحدا، هو فهد البيداء، وأسد الصحراء، النسر الأسود، قره قونشار، الذي وعد قرقد بوفاء كل ما يطلب منه، لأن من طلب الحسناء لم يغله المهر. ولكن قرقد، الشيخ الماكر، لم يعد قره قونشار وعدا شافيا، مع تكرر زوراته لخيمة الشيخ كل يوم أو كل يومين على الأكثر، وكان يقول إن مثل هذا الأمر يحتاج إلى تدبر وإعمال رأي وظل كذلك في تسويفه حتى فوجئ بكوكبة من فرسان الشاه من الكبشاق لجباية الضرائب.. فرأوا قول جميل بجمالها الفاتن، فأخذوها معهم، وقالوا إن مثل هذا الجمال الفتان لا يصلح لغير السلطان!

وجعل قرقد الشيخ يبكي، إلى أن جاءه قره قونشار تحت جنح الليل، فسأله عن المعتدين وأسمائهم وصفاتهم، ثم أقسم للشيخ المحزون، إنه سيقتلهم جميعا ولو اعتصموا بالسحاب، وسيرد إليه درة التركمان، فيبني بها

في بيت جدها عزيزة مكرمة، وقفز قره قونشار إلى صهوة جواده، وابتلعه الظلام.

فلما بلغ الحاج عبد الرحيم من قصته هذا الموضع، ورأى التطلع يطل من عيون السامعين على ضوء النيران، جعل يتلوى ويقول إنه لا يستطيع إتمام الكلام وهو مكبل بالحبال. ففكوا وثاقه، وفكوا أيضا وثاق أخيه الصغير طوقان إكراما له، ثم استطرد الدرويش يتم قصة قول جميل:

– وفيما كان قره قونشار يذرع الصحراء في طلب الثأر، ويقطع الطريق ليجمع المهر، التقى بالخان جلال الدين الذي كان قد ضل الطريق في العاصفة أثناء الصيد فأوى إلى خيمة قرقد، جد قول جميل، فاستقبله قرقد بالإكرام، وقدم له الشراب والطعام، رغم الثأر الذي بينه وبين أبيه بسبب اختطاف حفيدته الغالية. ولما حضر قره قونشار، انعقد بينه وبين ابن السلطان حديث طويل، أعجب فيه كل منهما بصاحبه، ودعا جلال الدين قره قونشار، فهد البيداء، إلى زيارته في قصر البستان.

ولبى قره قونشار الدعوة في الحال، ولكنه وصل في الوقت الذي خلع فيه جلال الدين من ولاية العهد، وكان الشاه يكره ابنه الأكبر لأنه يصادق الفقراء وعامة الشعب، ويظن أنه يأتمر به مع هؤلاء. ولهذا كان جلال الدين محوطا بالجواسيس، فما وصل قره قونشار لزيارته، حتى بلغ ذلك مسامع السلطان، كما بلغه أن ابنه أكرمه وأحسن وفادته، واستبقاه ليقضي الليل عنده حتى يبعث معه في الصباح من يحرسه إلى أن يخرج من العاصمة التي يطلب فيها رأسه بأي ثمن، ولكن أخذت قره قونشار العزة

بقوته وشجاعته، فلم يقبل هذه الحراسة وخرج من باب القصر وسيفه في يمينه، فانقضت عليه من جوف الظلام، من وراء ظهره، أيد قوية أخذت بتلابيبه وربطته بالسلاسل، وألقت به في سجن المدينة الرهيب، وتولى التحقيق معه شاهان بهلوان كبير جلادي السلطان. ووسائل التحقيق هي أدوات التعذيب الشنيع، من الحديد المحمي، إلى الوخز بالسيوف، لعله يعترف بسبب اجتماعه بجلال الدين في قصره، فلم يزد على أن قال: "لقد وعدت جلال الدين خان أن أسرق له أحسن جواد في قطعان خاقان المغول".

فيئس الجلاد من اعترافه، وأمر بسجنه في برج العذاب. فصعدوا به إلى أعلى البرج، وقد أحاط به الجلادون والسجانون من كل جانب في ظلام الليل. وهمس في أذنه أحدهم: "امدد ذراعك إلى اليمين وتعلق بالخطاف الحديدي بكل قوتك!".

وشعر بيد خفية تقطع الحبال التي تقيد يديه بسكين، وفتح باب ضيق ودفعوه منه، فمد يده بسرعة وأمسك خطافا حديديا وجده حيث أوصاه الصديق الخفي، وتعلق به في الهواء فلم يسقط في الهاوية كما كان ينتظر. وأقفل الباب وراءه، وسمع كبير الجلادين يقول لمساعديه: "ها قد نقص عدد الكلاب واحدا آخر!".

وظل قره قونشار معلقا في الخطاف، حتى إذا أشرق نور الشمس، تبين أنه معلق في السقف، وأن تحت قدميه هوة عميقة، ينبعث منها عواء وزمجرة بعيدة: إنها كلاب وحشية، وضعت في هذا الجب، لكي تأكل من يلقى إليها حيا.

وقال بعض أنصار جلال الدين للأمير أن ضيفه قره قونشار قد ألقي القبض عليه، وأنه سبق إلى برج العذاب. فغلى الدم في عروق الأمير جلال الدين، وامتطى صهوة جواده، وأمر مائة من رجاله المسلحين أن يتبعوه على خيولهم. فلما أقبل على البرج الرهيب، فر حارسه الشيخ مذعورا. واقتحم الجنود الباب، وأسرعوا يصعدون السلم العتيق وفي مقدمتهم الأمير جلال الدين، حتى وصلوا إليه، وأنزلوه من الخطاف وهو يكاد يغشى عليه من الإعياء.. فقبله الأمير وقال له: "لقد ساءنا أن تعامل هذه المعاملة، حتى لقد خشينا أن تظن بنا الظنون، وتحسبنا دعوناك إلى قصرنا لكي تقع في كمين.. والله لولا أننا نخشى عليك من سطوة شاهان بهلوان لاستبقيناك معنا.

– حاشاي يا مولاي أن أظن بك مثل هذا، ولست آسفا على شيء إلا إن الذين قبضوا على جردوني من سيفي. ولا تطاوعني نفسي أن أعود إلى البيداء بدونه.

فخلع الأمير سيفه الخاص، المذهب الغمد، المرصع بماسة فاخرة، وقلده قره قونشار. وقال له: "إني واثق أنك لن تستخدم هذا السيف إلا حيث يكون جانب الشرف والأريحية، وحيث تدافع عن الضعفاء، لا حيث تسلبهم وتزهق أرواحهم".

– لك عهد الله أن يكون هذا يا مولاي بعد اليوم. ولكن لي رجاء كنت أتمنى تحقيقه قبل أن أعود إلى البيداء. ألست تستطيع يا مولاي أن تعرفني بخبر فتاة حسناء حملها جند السلطان إلى قصره، وهي من باديتنا، وكنت أطلب يدها من جدها قرقد، واسمها قول جميل.

– إنها في القصر، ولكنها عنيدة صعبة المرأس، ولا تريد أن تخضع لرغبات السلطان، ولهذا أحسبها في خطر إن لم تترك العناد.

واستأذن قره قونشار، وسار إلى بيدائه حزينا، وإن كان قد حمد لله على نجاته من موت محقق، لأن مصير قول جميل كان يعده عنده حياته نفسها.

وفيما هو مستغرق في تلك الأفكار السوداء، كاد يجرفه عدد من الفرسان يركضون بسرعة، وهم يصيحون كالمجانين: "أفسحوا الطريق! رسالة إلى السلطان!".

بيد أنه دهش، لأن الرسول الذي يحرسه الفرسان كان مربوطا فوق جواده بحبال متينة! وكان يبدو على جواده أنه منهك، وفعلا تعثر الجواد بعد خطواط معدودات، ووقع على الأرض، وانبثق الدم من خياشيمه، والرسول المربوط على ظهره قد صار تحته، وهو يصيح بصوت كليل خافت: "رسالة إلى السلطان من ابنته التي حاصرها المتمردون في برج القلعة في سمرقند. وقد أرسلتني بهذا الخطاب إلى أبيها".

فتدخل قره قونشار وقال له، وقد رأى إعياءه الشديد: "أعطني الخطاب.. وأقسم أن أسلمه إلى السلطان يدا بيد".

– خذه.. ها هو، فإني شخصيا أشعر أنني سأموت هنا.

وتناول قره قونشار الخطاب، وربط الحبل حول سرج جواده، وقال للفرسان: "اسحبوني أنا.. أنا الرسول ومعي الرسالة. أسرعوا إلى قصر البادي شاه، فالوقت ثمين".

وفتحت جميع الأبواب أمام رسول ابنة السلطان، واستقبله خصي من خصيان القصر فقاده في الممرات والدهاليز لكي يقابل الشاه ويسلمه الخطاب يدا بيد، ولكنه سمع أثناء المسير صوت فتاة تستغيث من وراء باب، وصوتها يشبه صوت قول جميل، فضرب الباب بقدمه ففتحه على مصراعيه، ثم دخل القاعة المظلمة، فإذا فيها فهد جاثم فوق جسم مغطى ببساط، فقتل الفهد، الذي جرحه بمخلبه في وجهه جرحا غائرا قبل أن يخر صريعا بضربة الخنجر التركماني الحاد، ورفع قره قونشار البساط، وأخرج من تحته حسناء التركمان، قول جميل!

وفي هذه اللحظة دخل الشاه يشتاط غضبا، لأن إنسانا جرؤ على قتل فهده العزيز، وإنقاذ الفتاة التي غضب عليها. ولكن رساله ابنته لم تلبث أن استأثرت باهتمامه، فقد أمر بتجهيز جيش في الحال يسير تحت قيادته لتأديب العصاة وإنقاذ ابنته من أيديهم.

وحمل قره قونشار قول جميع مغمى عليها إلى خيمتها البيضاء، وقال لخاماتها أن شيوخا مسنين من البيداء سيحضرون قريبا لخطفها ليلا. بيد أن السلطانة الوالدة أمرت في الغداة بنقلها إلى برج العذاب.

وسأله صوت عميق لهفان: "وهل ماتت هناك يا حاج؟".

– كلا! بل هي لا تزال على قيد الحياة في برج العذاب في مدينة جرجان، التي تحكمها أم السلطان، ولا يجرؤ أحد على إطلاق سراحها، وأم السلطان نسيت أمرها بما جد من أحداث.

فقال الفارس الأسود: "لكن خبرني أيها الدرويش، كيف عرفت كل

هذه الأمور؟ فإنها ليست حكاية تروى، ولكنها حقيقة واقعة".

– الريح همست لي بها أثناء تجوالي وأسفاري.

فالتفت الفارس إلى أتباعه وقال: "استعدوا للرحيل يا رجال! عند فجر الغد نقصد إلى جرجان!

فقال الحاج عبد الرحيم: "إن كنت حقيقة تريد بلوغ جرجان، فأسرع أيها الفارس، فإن أبناء الخاقان يتسابقون إلى أسوارها من ثلاث جهات بجيش جرار، فإذا وصلوا إلى أسوارها استحال عليك دخولها.

– سأسرع أيها الدرويش. وستأتي أنت أيضا معي، وسأعطيك وصاحبك جوادين أصيلين. حتى نصل إلى جرجان في ثلاثة أيام. وأنتم يا أصحابي انتظروني في مضاربكم، وإذا نجاني الله عدت إليكم من جرجان.

فتح جرجان

مغامرات قره قونشار

وقد استطاع قره قونشار أن يشق طريقه إلى جرجان متجنبا طوابير المغول الزاحفة، وفي معيته فارسان من التركمان -أو هكذا يبدوان- هما عبد الرحيم وطوقان.

فلما بلغ ثلاثتهم شاطئ الجيحون، وجدوا مشقة شديدة حتى قبل بعض الملاحين أن ينقلوهم في سفينتهم إلى جرجان نفسها، فبلغوها بعد أربعة أيام، سالكين إليها ترعة واسعة تشق المدينة إلى شقين، أحدهما هو المدينة الجديدة التي تحيط بها الأسوار العالية، والآخر هو ضواحيها وأرباضها وأحياؤها القديمة التي تحيط بها البساتين.

وأخرج قره قونشار من كيسه عشرة دنانير ذهبية، ووضعها في يد صاحب السفينة، ولكن الرجل ضحك وقال: "وما انتفاعي بها؟ لقد قتل المغول زوجتي وأولادي، وإذا كنت تظنني لم أعرفك، فقد أخطأت. إن جوادك الأسود الطويل القوائم، وزيك الأسود، قد جعلتني لا أخطئ في معرفة شخصيتك أيها الفارس. وإذا كنت قد أتيت لحرب المغول وجهادهم، فإني أحب أن أكون من أصحابك في هذا الجهاد".

– ولكن من أنت؟

– أنا "خيري الحداد"، وكنت حدادا قبل أن أشتري هذه السفينة لأهرب عليها بحياتي بعد أن قتل المغول أهلي في بخارى.

ودخلوا المدينة جميعا، فإذا الأخبار قد جاءت أن المغول قد ظهرت طلائعهم في الأفق، وأن أبواب المدينة سوف لا تفتح بعد الآن، لأن الحصار قد بدأ.. وأمر قره قونشار رفاقه أن ينتظروه في "خان مردان" وتوجه هو إلى برج العذاب حيث سجنت السلطانة قول جميل، وحيث لم يجرؤ الحراس على تخلية سبيلها حتى بعد هرب السلطان من جرجان، لأن الذي خلفها في الحكم من أقاربها الكبشاق.

وشرع قره قونشار يتفاهم مع حارس البرج النائم أمام الباب، ووضع في راحته شيئا من المال، ليحصل منه على المعلومات اللازمة له، ولكن الرجل جعل يماطله، لأنه يخشى جواسيس الكبشاق. فرفع قره قونشار سوطه وهم أن يضربه به، لولا أن تدخل شيخ مسن لطيف، أحمر اللحية، هو صقلب عبد ميرزا يوسف القديم، وكان قد جاء لزيارة سيده الذي ألقت به السلطانة في برج العذاب، لأنه كتب عنها في تاريخ خوارزم الذي يؤلفه أنها وصمة في جبين سلطنة خوارزم!

وقال صقلب لقره قونشار إنه يعرف وسائل أخرى للوصول إلى أسرار البرج ومعرفة أخبار من فيه، ولكن عليه أن يتذرع بالصبر والأناة حتى يصل إلى هذا. وطلب منه أن يعتمد عليه في بلوغ مأربه.. ووثق قره قونشار بهذا الشيخ، وفوضه في الأمر.

سقوط جرجان

وعندما وصل جيش المغول إلى جرجان، لم يشرع في مهاجمتها على الفور، بل تفرقوا في القرى والدساكر المحيطة بها، أما أوغيداي وشاغاتاي

ابنا جنكيز خان فقد استقرا في قصر البستان الذي كان يملكه جلال الدين في أرباض المدينة. في حين انهمك القواد في إعداد آلات الحصار والمجانيق التي يشرف عليها مهندسون صينيون وكانت المشكلة الكبرى في خلو المنطقة المحيطة بالمدينة من أحجار ضخمة تصلح مقذوفات للمنجنيقات. فهدى الصينيين ذكاؤهم إلى قطع جذوع الأشجار الصلبة إلى أجزاء مناسبة، تبل في الماء حتى تكتسب الثقل الكافي!

وكان السلطان الكبشاقي الجديد على رأس الحامية المدافعة.

فقرر أن يفاوض المغول كيما يصالحهم على جزية كبيرة تدفع إليهم كل عام!

فلما أرخى الليل سدوله خرج إلى قصر البستان وحده.. فلما مثل بين يدي الأميرين، حياهما وقد وضع يده فوق صدره علامة على الخضوع، فسأله شاغاتاي: "بماذا أتيتنا؟.. أين مفاتيح المدينة الذهبية؟".

– لقد أتيت يا مولاي أعرض خدماتي على جنكيز خان المعظم.

– إننا نريد مفاتيح المدينة لا رعديدا مثلك! أترانا نركن إلى سيفك الذي خذل قومك عند الشدة؟ اقبضوا عليه!

وأسرعت إليه أيدي الجلادين، فكسروا له فقار ظهره على الطريقة المغولية، ثم ألقوا به إلى العراء، فأكلته بنات آوي وهو لا يزال حيا!

ولم تمض أيام حتى وصل يوشي أكبر أبناء الخاقان بجيشه، فاتخذ خطة جديدة في الحصار والهجوم، هي حفر خندق تحت أسوار المدينة، نفذ منه رجاله

ليلا، ثم استمر القتال، وارتفع علم جنكيز خان الأبيض على البرج الشمالي.

وأحفظ هذا أخويه فجعلا يهاجمان المدينة في لدد وعنف، والمدافعون يردون الهجوم في لدد أشد وعنف أعظم. وفي أثناء ذلك كان قره قونشار يتردد على باب السجن الرهيب لعله يلتقي بالعبد صقلب، ولكنه لم يعثر به، ثم لقيه يوما، فطمأنه إلى أنه سيعرف اليوم كل شيء، لأنه سيلقي حاكم السجن في داره ويتفق معه على كل شيء.

ولما كان الغد جاء بالخبر اليقين، وهو أن قول جميل محبوسة في زنزانة في أعلى البرج، وأن في البرج من الداخل مائتي جندي قتلهم السأم، فهم ينتظرون أي مناسبة لتسلية أنفسهم بقتل الطارق أو المقتحم. ولكن قره قونشار لم يأبه لهذا التهديد، وذهب إلى حي العمال والصناع وشرع يلقي خطبة حماسية ويؤلبهم بها على عصابة الاستغلال التي تعيش في القصر، قال:

– ماذا تنتظرون أيها الشجعان لكي تقتحم القصر فنسقط الحاشية الفاسدة التي تعيش فيه. وننتهز الفرصة فنحطم برج العذاب. الذي يزخر بالأبطال الشجعان، الذين كان كل ذنبهم أنهم كانوا أبسل منا، فصارحوا الظالمين برأيهم فيهم. لماذا لا نفك أسر هؤلاء الأبطال؟

وهتف الجميع: "إلى الأمام.. إلى برج العذاب!".

وحملوا سيوفهم، ومطارقهم، وذهبوا فانهالوا على أبواب البرج الحديدية. وانبرى لهم بعض الحراس، فأنزل الثوار بهم هزيمة قاسية، وانهار الباب الحديدي أخيرا، وتدفق الثوار إلى داخل السجن، وجعلوا يحطمون

أبواب الزنازين، فإذا قوم كف بصرهم لطول ما سجنوا في الظلام والرطوبة، وقوم لا يستطيعون الخروج لأن أرجلهم قطعت أثناء التعذيب.

ثم جعل قره قونشار يرقى السلم العتيق الذي بليت درجاته، ومعه حداد متين البنية، إلى أن بلغا الحجرة العليا، ونظر من ثقب الباب، فإذا ظلمة رائنة، فجعل يدق الباب، فتحرك شبح في الغرفة إلى جهة الباب، وهمس في جرس خافت: "من أنت؟".

وكان قره قونشار يحفظ أغاني قول جميل عندما كانت في البيداء ترعى أغنام جدها، وكان خير جواب على سؤالها أن يتغنى بلحن من تلك الألحان ليدخل الفرحة على قلبها، ولكنه كان يرتجف من رهبة اللقاء واللهفة عليها في آن، فلم يستطع أن يجيبها إلا بقوله: "أنا..". وكأن هذه الكلمة تحمل تفسيرا كافيا لما سألت عنه.

وأجابت قول جميل: "ضع النور أمام وجهك لأراه من ثقب الباب".

وأطاعها بيد مرتعشة ووجه ممتقع، ووجف قلبها وقالت:

– آه! إني أعرف هذا الجرح الذي أرى أثره على وجهك! إنه من مخلب الفهد في قاعة السجاد بقصر الشاه! إنك أنت، منقذي على الدوام!

– ابتعدي عن الباب، فسنحطمه ونطلق سراحك!

وانهالت المطرقة على قفل الباب، وتهاوى، ولكن الفتاة ظلت جالسة في الركن، وهي تغطي صدرها بيدها. فقد كان ثيابها أسمالا لا تستر جسمها الناحل، لكثرة ما نال منها البلى.

– لقد بليت ثيابي كلها، حتى لا أستطيع الآن أن أقف أمامك.

وخلع قره قونشار ثوبه الحريري، وأدار ظهره لها حتى لبسته، وتأهبت للخروج، فإذا ألسنة النار تندلع حول البرج في جميع أنحاء المدينة، والناس يهرعون فزعين.

وكانت أجزاء من المدينة قد هدمتها المنجنيقات وقذائف القار الملتهب، ولكن المدافعين كانوا لا يزالون يقاومون بهمة ونشاط، والمغول يستولون على أحياء المدينة حيا بعد حي في مشقة وعناء، لأنهم لم يتعودوا إلا الحرب في العراء، على ظهور الخيل، لا حرب الخرائب والشوارع والبيوت. وكانت النسوة والعذارى يحاربن مع الرجال جنبا إلى جنب، خوفا من المصير المرهوب على يد التتار.

وأخيرا، هدم السد الذي يصد مياه نهر جيحون السريع الجريان. فكانت هي الضربة القاصمة التي ذهب ضحيتها معظم الباقين من أهل جرجان على قيد الحياة.

وقد شهد الغارقون في التتار حصانا أسود فاحما، عليه فارس طويل القامة أسود الثياب، وقد أردف وراءه فتاة عليها قميص من قمصان الرجال أسود اللون، والجواد يخوض بهما تيار الماء الجارف.

وقيل إنه خاض بهما الفيضان إلى صحراء التركمان، وقيل أيضا إنهما ذهبا شهيدين متعانقين في ذلك اليوم المشئوم.

ولكن الثابت على كل حال، أن أحدًا لم يعثر لهما على أثر، وأنهما صارا معا إلى مصير واحد بعد طول معاناة لبرح الهوى ولوعة الجوى..

أما الحاج عبد الرحيم فاستطاع المرور من بين صفوف المغول الناهبين السالبين، وكفلت له شارة الصقر الذهبي سلامة المرور مع شقيقه طوقان، إلى أن وصل مخيم يوشي خان أكبر أنجال جنكيز خان. ونما إلى سمع الدرويش أن يوشي هو الإنسان الوحيد بين المحيطين بالخاقان الذي يجسر على معارضته أو مخالفته في الرأي. ولكنه سمع كذلك أن الخاقان لا يثق به كل الثقة. ولهذا عينه حاكما على الجانب الأقصى من ممتلكاته الواسعة، وحيث لا تزال هناك بقية من أعمال الفتح تستنفد جهوده.

ووجده عبد الرحيم جالسا في مخيمه الأبيض على عرش منخفض، وقد جعل قدمه تحت فخذيه، وهو طويل كأبيه، ثقيل أيضا. ويتميز بلحية قصيرة سوداء وشاربين طويلين وقد ضفر في طرف لحيته شعرات من شعر ذيول الخيل، جعل طرفها ملويا فوق أذنه اليمنى!

وكان بين يديه جمع من الخاقان والبكوات والعلماء والعامة، ساجدين في امتثال، في انتظار تعطف الحاكم عليهم، عندما دخل الحاج عبد الرحيم عليه، وهو يصيح صيحته التقليدية: "يا هو! يا حق! لا إله إلا هو..".

واخترق صفوف الساجدين غير ملق إليهم بالا، حتى صار قبالة عرش يوشي، فوقف أمامه منتصب القامة، ويده فوق عصاه الطويلة التي يتوكأ عليها في أسفاره الطويلة، وصمت. فقال له يوشي بعد أن حدجه بنظره طويلا: "من أنت أيها الكاهن؟".

– أنا رسول محمود غلوش إليك. أحمل هذا الكتاب.

وأعطاه خطابا، فضه يوشي على عجل، فإذا ثلاث كلمات لا أكثر:

"ثق بهذا الرجل".. فنادى ياورا وأمره باستدعاء ابنه باتو خان. فما لبثوا أن عادوا بفتى في التاسعة من عمره، لامع العينين، فقال يوشي وهو يضع يده على رأس الغلام: "هذا ابني باتو خان. وكنت قد سألت محمود غلوش أن يبعث إليَّ برجل من العلماء ليعلمه القراءة والكتابة بلغة رعاياي الجدد من أهل خوارزم. فهل أنت هذا المعلم؟

– في استطاعتي أن أعلمه الفارسية والتركمانية والعربية، وتقويم البلدان، وأخبار الرحالة، وأصول الأخلاق والمعاملات.

– هذه أشياء نافعة تجعل منه حاكما صالحا.. اسمع يا باتو! أطع معلمك هذا. وأنت أيها المعلم، إني أسمح لك أن تؤدب ابني بالعصا إذا خالف أو قصر.

فالتفت الفتى بعين واعية إلى معلمه وقال له: "إذا حدثتني عن سير الأبطال الفاتحين، فربما أصغيت إليك!".

– سأحكي لك عن غزوات الإسكندر، الذي فتح –وهو لا يزال غلاما يافعا– كثيرا من الممالك التي كانت تفوقه عددا وعدة وثراء.

– هذا عظيم.. ولكن كيف تراه استطاع أن يحرز كل هذه الانتصارات؟

– قيل إن بعضهم سأل الإسكندر هذا السؤال، وإنه أجاب أن العامل الحاسم في انتصاراته أنه كان لا يرهق الشعوب التي يغزوها ولا يثقل عليها بغيًا وعدوانا.

والتفت يوشي خان إلى ولده، وسأله برفق:

– لقد فتح أبي جنكيز خان الأعظم نصف العالم، والإسكندر ذو القرنين نصفه الآخر، فماذا بقي لك أن تفتحه يا باتو خان؟

– سأفتح جميع بلاد الإسكندر!

ومنذ هذا الوقت، والحاج عبد الرحيم مستقر في معسكر يوشي خان يعلم ابنه سير الفاتحين، وسير المصلحين، وأصول العدل والرفق في المعاملة.

وكان يوشي خان يتسلى طول الوقت بالصيد، وفي ذات مرة بعد عن مرافقيه وبحثوا عنه طويلا، حتى وجدوه أخيرا ملقى بين الأعشاب، به رمق، ولكنه جامد النظرة لا ينطق، لأن ظهره كان قد كسرت فقاره على عادة المغول في الإعدام!

وفي هذه الآونة كان القائد الشيخ المحنك سابوداي باغاتور عائدا من حملة من جهة الغرب، فرفع باتوخان إلى سرج جواده وقال له: "إن نفس المصير ينتظرك إذا بقيت هنا. فتعال معي إلى الصين لأحميك وأعلمك صناعة الحرب".

وسار معه باتو خان، ليكون في أمان، وعاد الحاج عبد الرحيم إلى الرحلة والضرب في الآفاق.

العودة إلى الوطن

بعد أن فر جلال الدين سابحا على صهوة جواده إلى الشاطئ الآخر، ومضى بعيدا حيث لا يعلم أحد، أرسل جنكيز خان قائدين من أمهر قواده لكي يتعقباه في مكان وجوده، فذهبا إلى الهند، وبذلا في البحث جهدا صادقا. ولكنهما لم يعثرا له على أثر.

وكان جنكيز خان قد اعتصم من حرارة الجو بالجبال العالية حيث يتوج الثلج قممها، وجعل يقيم المبادئ الليلية، ويستمع فيها للرواة من الصين والفرس، ويجلب إليه الراقصات البارعات من منشوريا ليعرضن على أنظاره فنونهن الرائعة في أثوابهن الفاخرة ذات البهاء والآلاء.

وفي هذا الجو مرض ابنه الأصغر قول كان وامرأته الشابة قولان خاتون بالحمى، فكان يزورهما الخاقان كل يوم ليسألهما عن حالهما. فتبكي قولان وتتوجع قائلة إن هذه الجبال تجثم على صدرها وتحس أنها ستقتلها وولدها الوحيد، وإنها لهذا تريد العودة إلى سهوب المغول الطيبة الهواء.

– ولكنك لا تستطيعين العودة بدوني. وأنا لا أستطيع العودة، لأنه لا يزال أمامي نصف العالم الآخر لم أفتحه بعد. ولن أعود قبل أن أفتحه!

وتزداد قولان خاتون توجعا، فيبعث الخاقان في طلب مستشاره الحكيم الصيني له ليوتشوتساي، فيأتي هذا على عجل، وفي يده كتاب ضخم يرصد فيه طوالع النجوم. فتنهض قولان وتنتزع من يده الكتاب وتلقيه

أرضا وتتربع فوقه وهي تقول:

– لست على استعداد لسماع ما يقوله أحد من الناس أو الآلهة.. أنا أريد أن أعود إلى سهوب الكرويلين وسأعود إليها، فهذه رغبتي، ورغبة جيشك كله أيها الخاقان!

فرفع جنكيز خان حاجبيه وقطب جبينه ثم قال: "إني لم ألق إلى الآن عدوا استحال عليَّ قهره. والآن بقي أن أقهر الموت نفسه، فإذا بقيت معي لم يجسر الموت على الاقتراب منك".

ثم التفت إلى الحكيم الصيني وقال له: "وعدتني أن تدعو السحرة والأطباء والعلماء من كل جنس، والكهان من كل دين، لكي يقدموا إليَّ إكسير الخلود".

– لقد أرسلت في طلبهم فعلا يا مولاي. وسرعان ما يحضرون إليك من كل صوب وحدب.

وانقضت أيام أخرى، زاد فيها شحوب قولان وولدها، وأدرك الخاقان أن المنايا خبط عشواء، وقد تعاجل الغض الأهاب، وتؤجل الشيخ الواهي الأصلاب، ولا سيما بعد أن بلغه مصرع ابن ابنه شاغاتاي الذي كان يحبه كثيرا ويؤمل أن يجعل منه خاقان أعظم لجميع بلاد المسلمين. وجعلت الأفكار السوداء تتراكم فوق كاهله، فبدأ معظم الوقت مطرقا حزينا.

أما جنوده، فكانوا قد اتخموا بالأسلاب والغنائم، وصاروا تواقين بعد طول الغربة إلى العودة إلى مواطنهم الأولى، وسئموا هذه الإقامة في جبال الأفغان ومفاوزها الصخرية.

وهكذا وجدت قولان خاتون الفرصة سانحة للتآمر مع مستشار الخاقان له ليوتشوتساي حتى يدخلا في نفس جنكيز خان أن الآلهة نفسها تريد منه أن يعود إلى موطنه ويترك تلك الديار، ويتنازل عن فكرة استئناف فتح العالم. وقد هدى التفكير له ليوتشوتساي إلى اختراع قصة اعتمد في تمثيلها على جنديين، وأحسن هو إخراجها. فاقتنع الخاقان بفكرة العودة إلى الوطن.

الحاكم والحكيم

وفي مسيره إلى بلاده، جعلت فكرة الخلاص من الموت، والخلود في الدنيا تستولي على وجدانه شيئا فشيئا، فكان في كل مرحلة يقطعها يستعجل وصول الحكماء والأطباء، حتى إذ سمع بحكيم صيني يدعى "تشانج شون" قيل له إنه توصل إلى كشف أسرار السماء والأرض، وإنه يعرف وسيلة الخلود في الحياة الدنيا، بعث إليه فرقة كاملة لتسهر على إحضاره إليه وراحته في سفره، وبعث مع الفرقة رسولا صينيا خاصا، هو أحد وزرائه في الواقع، يحمل إلى الحكيم رسالة يدعوه فيها للحضور أو التكرم بإرسال سر الخلود.

ووصل الركب إلى الكهف الذي يعيش فيه الحكيم الناسك. وقابله الوزير فإذا هو شيخ بالي الأسمال متقدم السن، فوضع الخطاب بين يديه، فأبدى الناسك الرفض البات لأول وهلة.. ثم وافق على تلبية الدعوة، ولكنه أصر إصرارا باتا على عدم ركوب المركبة الفاخرة. وصحب معه عشرين من تلاميذه الأصفياء.. وكان يقف بكل قرية يمر بها، فيقيم له الحكام المغول المآدب لتكريمه، فلا يصيب منها شيئا، ويصر على تناول

الأرز المسلوق في الماء والفواكه.

وقد استغرقت الرحلة عامين! حتى وصل تشانج شون إلى نهر الجيحون، فعبره، وكان عند العدوة الأخرى طبيب الخاقان الخاص الذي بعثه لاستقباله. فأعطاه الحكيم آخر ما نظمه من الشعر ليطلع عليه، فحواه "إنني ناسك متقشف، وقد جئت إلى معسكر الخاقان المعظم لأطلعه على حقيقة كبرى، إذا أحسن فهمها غمرت السعادة العالم أجمع".

ولم يخر الناسك على ركبتيه ساجدا –عندما دخل للقاء جنكيز خان– واضعا يديه إحداهما فوق الأخرى، بطنا لبطن، آية على التحية والاحترام. ورأى الخاقان أمامه شيخا ناحلا، لوحته الشمس، كث الحاجب، طويل اللحية أبيضها، إذا اعتبرت زيه حسبته سائلا، فهو مهلهل الثوب. ولكنك إذا اعتبرت نظرته الهادئة الساكنة ورأسه المرفوع في إباء، وقامته المنتصبة في هذا المقام أمام الخاقان، عرفت أنه ملك!

وطال وقوفه لحظة واحدة، ثم جلس على البساط في بساطة، فقال له الخاقان: "أرجو أن تكون قد وفقت في سفرك إلى الراحة. وقوبلت بما تستحقه من الإكرام والتكريم!".

– في المرحلة الأولى كانوا يقدمون لي من الطعام فوق الكفاية بكثير حتى إذا وصلنا إلى البلاد التي غزاها جندك أخيرا، لم يجدوا ما يقدمونه لنا إلا بمشقة.. فالخراب كان باسط الجناحين على كل مكان.

– ولكنك هنا ستجد كل ما تريد. تعال كل معي كل يوم في خيمتي!

– لست بحاجة إلى هذا الإكرام كله.. فوحوش الجبال من أمثالي

يؤثرون العزلة وبساطة المأكل.

– كما تشاء فأنت مطلق الحرية في اختيار نوع الحياة الذي يلائمك. وأحسبك في حاجة إلى الراحة الآن، فاذهب لتسريح، وسنتحدث فيما بعد حديثا خاصا.

واستأنف الجيش مسيره نحو سهوب الكرويلين، موطن المغول الأول، وكان الخاقان يرسل إلى الحكيم الناسك الفواكه وأنواع المأكل الفاخر كل يوم. وفي ذات مرة، وقد وقف الجيش وعسكر للراحة، أرسل الخاقان فاستدعى الناسك قبيل المساء، وقال له: "أيها الحكيم المقدس! لقد طال انتظاري لمعرفة الحقيقة في موضوع إكسير الشباب والخلود الذي يحيل الشيخ شابا، والسقيم قويا، فهل ليس لديك مثل هذا الإكسير أيها الحكيم؟".

وأطرق الحكيم الناسك قليلا، ثم قال بتؤدة شديدة: " كلا.. ليس لدي هذا الإكسير!".

– إذا لم يكن لديك، فهلا قلت لنا كيف نركبه أو نحصل عليه؟ إنك إذا أتحت لي هذا الإكسير، سأغدق عليك من المنح والعطايا ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، وسأعينك حاكما على إقليم واسع، وأعطيك سربا كاملا من مائة فتاة من أجمل العذارى وأشهاهن إلى القلوب، وأبني لك قصرا في معتزلك بين الآكام لم يشهد مثله من قبل. ولست أصر على تجدد شبابي، فما لي في النساء إرب كبير. فأنا راض بالشيب والكهولة، بشرط أن تدوم حياتي سنوات لا نهاية لها.

وسكت الحكيم الناسك وهو مطرق، ثم قال: "ما كل هذا الذي

تغريني به، وأي قيمة له عندي وأنا أكره اللذات وأتجنب المجتمعات وأعيش بين قمم الجبال؟ وما فرحي بحكم إقليم واسع، وأنا أسعى لحكم نفسي ولا أستطيع؟! وأما عذاراك من السبايا الجميلات، فأولى أن تزوجهن من شبان أكفاء لهن. وأما القصر المنيف، فخير منه عندي صخرة فيها كهف. وأما إكسير الخلود، فإني أصارحك بالحقيقة الوحيدة التي أعلمها عنه علم اليقين: إن هذا الإكسير لا وجود له على الإطلاق.

ووجم جنكيز خان طويلا، ثم قال أخيرا: "إن الناس يكرهون الحقيقة، لهذا يعمد أصحاب السلطان إلى الرياء والكذب. ولكنك لم تخش، ولم تطمع، فقلت الحق الصراح. وان أمانتك تعجبني، فتمن عليَّ تعطَ!".

– لي أمنية واحدة! وهي أن تدع سياسة الحرب، وتقر في العالم حكم السلام.

– لا سلام بغير حرب.. ولن يكون سلام حتى أقضي على كل أعدائي، فأعيش في أمن واطمئنان. إنك رجل حكيم مصادق، ولكني لا أستطيع اتباع ما تشير به أيها الحكيم! فلا تعد عليَّ هذا الأمر!

واستأنف الجيش في الغداة سيره الوئيد، كأنه نمر كاسر ثقلت أحشاؤه بما أكل من لحم. فقد كان كل جندي يحمل معه أحمالا من الأسلاب والغنائم النفيسة والسبايا والأسرى وقطعان السائمة. واستمر مسير الجيش عاما آخر، حتى وصل إلى غايته، في بطن البيداء.. فنصب الخاقان خيمته مرة أخرى في سهوب الكرويلين، وبدأ ينظم إمبراطوريته على أساس استغلالي مستقر.

نهاية جنكيز خان

ولكن إقامة جنكيز خان في موطنه لم تطل. فما نما إلى سمعه أن إمبراطور "التانجو" قد شرع يتحداه من جديد، حتى استعد للسير بنفسه، واستدعى بنيه، فحضروا ما خلا أكبرهم يوشي الذي بقي في بلاد خوارزم، وقال ثاني أبنائه شاغاتاي حاكم بلاد ما وراء النهر إن يوشي يؤثر الإقامة في خوارزم على بلادنا، وإنه يضمر قتل أبيه أثناء الصيد، ليتسلم السلطة، فاستشاط الخاقان غضبا وأرسل شقيقه "أوشيفين" مع بعض الخاصة المقربين إلى يوشي لاستدعائه. فإذا أبى فليدبروا قتله سرا أثناء الصيد.

وأجاب يوشي بخطاب إلى والده أنه لا يستطيع الحضور بسبب مرضه، ولكن تقرير جواسيس الخاقان أكد أنه بخير حال، وأنه يخرج للصيد كثيرا.

وسار جنكيز خان مع ولديه المحبوبين أوغيداي وطولي لحرب إمبراطور التانجو، ولكنه جعل يرى في بعض الطريق رؤى مزعجة، وصار يتحدث عن قرب موته، وأرسل يستدعي ولديه هذين، وكانا على رأس جيش آخر غير بعيد، فما وصلا، حتى صرف الحاضرين واختلى بهما فأوصاهما بما رآه كفيلا يصون الدولة واستقرار الحكم، ثم قال: "إن جميع الناس يؤثرون الموت في ديارهم، بيد أنني أوثر أن أموت وسط جيشي!".

واستأنف الجيش مسيره، والخاقان يستحثهم، لأنه أضحى شديد القلق، وأخذت العلة تشتد عليه يوما بعد يوم، حتى إذا أحس بدنو أجله

أمر ألا يذاع خبر موته بأية صورة، فلا بكاء ولا عويل حتى لا يشمت العدو ويطرب.

وأمضى الخاقان أيامه بعد ذلك راقدا على لباد فوق الأرض، وفوق عباءته، وقد خارت قوته، وذات يوم دخل عليه مستشاره الصيني وقال له: "إن محمود غلوش وأصحابه قد جاءوا من بخارى" فأشار أن يدخلوا.. فدخلوا، وركع محمود غلوش إلى جوار أذنه وهمس له الخاقان: "كيف.. يحكم.. ابني.. يوشي بلاده؟".

فغطى محمود غلوش وجهه بيده، وصاح: "لقد حاقت بنا مصيبة كبرى! وجد يوشي خان مقتولا أثناء الصيد، وفقار ظهره مكسورة، ولم يعرف قاتله".

واكفهر وجه جنكيز خان، وقال بحسرة:

– لقد تسرع شقيقي في قتل ابني. لقد كان يوشي فتى باسلا راجح العقل، ولن تجد المغول بعدي وبعده من يحسن القيام عليها!

وسكت الخاقان طويلا، وقد سكنت أوصاله، ورجاله الحاشية من حوله راكعون صامتون.. حتى قطع الصمت صهيل جواد الخاقان بباب الخيمة، فانتبهوا جميعا مجفلين، كأنما أفاقوا من حلم، ونظروا إلى جنكيز خان، فإذا نظرته اللامعة قد فقدت بريقها إلى الأبد، لأنه فارق الحياة.

وكان جنكيز خان يحمل في أسفاره تابوتا، فوضعوه فيه، وجعلوا إلى جانبه في تابوته الضخم سيفه، ودرعه، وخنجره، وقوسه، وكأس شرابه!

وكتموا خبر موته كل الكتمان حتى خرج العدو ليبدي خضوعه فانقضوا عليه كالوحوش الضارية، فأبادوه عن آخره وهو أعزل من السلاح.

ثم وضعوا التابوت على عربة، وساروا به إلى مسقط رأسه، وكانوا كلما مروا بمخلوق حي من حيوان أو إنسان، قتلوه بلا تحرج، وهم يقولون له:

– اذهب إلى إمبراطورية ما وراء السحاب، واخدم مولانا هناك بإخلاص وصدق وولاء!

حتى إذا وصلوا مسقط رأسه، دفنوه في الجبل، في ظل "أرزة" عتيقة، كان قد أعجب بها وهو يتنزه ذات يوم، وقال: "ما أحلى أن يرقد المرء رقدته الأبدية في هذا المكان".

وهكذا انتهى غازٍ من أكبر الغزاة، وباغٍ من أكبر البغاة، ظهر كالإعصار العاصف، وانتهى كما ينتهي كل إنسان مهما جل أو هان.. تراب عاد إلى التراب.

الفهرس